
السكابندو
عبد السميع بنصابر

عبد السميع بنصابر

السَّكابَنْدُو

قصص

الكلبُ الذي صارَني

لَمَ يَكُن لديّ الوقتُ الكَافي لأستَعيذ باللهِ مِن الشّيطانِ الرّجيم، فالكلبُ الأسوَدُ الّذي باغتَني فَجرَ هذا اليومِ وأنا ذاهبٌ إلى المسْجد كانَ ذكيّاً.. رَغم أنّني أؤمِنُ أنّ الكِلابَ السّودَ الّتي تظهرُ فجراً تحملُ أرواحاً شيطانية..

التقطتُ حَجراً ورميتهُ به، بَيدَ أنهُ كان يملِكُ من اللّياقَةِ ما جَعلهُ يتفاداه بِمهارةٍ أفزعَتني.. قالَ وهوَ يَقتَربُ منّي مُبتَسِما:

- "قديمة!"..

غمغَمت فزعاً:

- "أعوذ بالله من..."

وقاطَعني مرّةً أُخرى:

- "طز! هذه أيضاً قديمة"..

شمّرتُ عَن ساعِديّ وقَفّطتُ جِلبابي.. قفزتُ في الهواء، وقفَزَ أيضا.. تعانَقنا في الأعالي وتعاركنا حتّى طارَ الغُبار.. صَفعة في وجهي وصَفعةٌ في وجهه.. عضَضتُهُ في مؤخّرته عضّةً نبَحَ إثرها طويلاً.. وعِندما ابتعدتُ عنهُ قليلاً، شعرتُ بِجِسمي يتضاءلُ ويخِفّ.. أمّا هو فقد استحالَ كومةً من الضّبابِ لم أتبيّن ما بداخِلها.. كانَ جسمي قد توقّف عن التّضاؤل لحظتها.. تحسّستُ جسَدي.. وشعرتُ بفروٍ كثيف غطّاهُ.. ظهرَ نتوء على مؤخرتي ثُم طالَ حتّى صارَ ذيلاً كامِلا.. تحسّستُ وجهي أيضا، صارَ لي فَمٌ مُستطيلٌ كأي كَلب.. كَلب؟.. صِرتُ كلباً.. كَلباً حقيقيّاً! أمّا الكلبُ الأسودُ فقد رأيتهُ يخرجُ من الغمامة مُرتدياً جِلبابي

وبَلغَتي.. لَمَ أسْتَسغِ الأمر فتَبعتُه، لكنّهُ كانَ دائما أكثر لياقةً منّي.. هَرولَ إلى المِسجد وتركَني لدى البابِ أترصّدُ خُروجه.. أُقيمتِ الصّلاة فأقعيتُ قُرب الحائط أنتظر.. كانَ الإمامُ كَثير اللّحن أثناء القراءة، وارتَكبَ أخطاءً كثيرا في المدود وأحكام الميم والنونِ المشدّدة والساكنة والتنوين.. وخلَطَ بين روايات ورش وحفصٍ وقالون.. استغربتُ كيف لم يسبق لي أن لاحظتُ ذلك، وقد كنتُ أُصلّي خلفهُ دائما دون أن أنتبه إلى أخطائه.. كُنتُ كثير السّهوِ أثناء الصّلاة.. سلّمَ الإمام وبعدهُ المأموم والمصلون ثُمّ خرجوا تِباعاً.. ترصّدتُ الكَلبَ الذي صارَني هذا الفجر.. ما إن ألقى ببلغَت"ـه" أمامهُ ودسّ قدمه فيها حتّى قفَزتُ عليها بأسناني.. رفسَني برجله وسَرتِ الحميّةُ في قُلوبِ المؤمنين، فتهاوت عليّ أقدامٌ كثيرةٌ وحجارةٌ ونعال.. لم يكُن لديّ الوقتُ لأشَرحَ لهُم فانتبَذتُ رُكناً قصيّاً حتى أسْلَم منهم، وعندما فتحتُ فمي لأشرح وجدتُني أقول:

- "عووو عوو هَوْ هااو"..

بكيتُ لحظتها وهربتُ بعيدا.. في الطّريقِ وجدتُ كلبةً بيضاء شاردة قُربَ سطل قُمامة.. سألتُها:

- "ما اسمُك؟"

أجابتني:

- "نسيت"..

واستَطرَدت:

- "لونُك جميل!"

تبادَلنا الحديث وعرفتُ أنّها كانت تنتظرُ مومِساً قُربَ الحانة، سَرقَت منها إنسانيتها تلك الليلة، بَعدما كانت كَلبة، وأنها حزينةٌ لأنها فقدت أيضا مع جسدها حقيبةً تحوي بطاقَة

السحب وبطاقة الهوية وكثيراً من الأوراق.. تذكرتُ بَلغتي وجلبابي فسردتُ عليها حكايتي.. "كُنتِ مومسا؟" سألتُها فأجابت:

- "نعم"..

- "غريب، أكرهُ المومسات لكنني أحببتُك وأنت كلبة!".

قالت:

- " لا تعجب، أنا أيضا أحببتُك كلباً أسود، رَغم أنني عندما كُنتُ إنسانة، كان جارُنا الزنجي يتبعني ولم يبلُغ مني "ما يُنقي به أسنانه"..

فرحتُ بمشاعرها تُجاهي.. ولم أُفكر في أنها الآن تملكُ بكَارة أم لا، البكارةُ الّتي تسبّبت في فراقي مع حبيبة قبل أيام.. قالتْ:

- "نتمشّى قليلاً؟"

- "نعم تفضلي"

على الرصيف كُنتُ أمشي مُلتصقاً بها.. وفي لحظة ما قُلتُ متحمساً:

- "لحظة، لمَ لا نتزوج أيتُها الأخت؟"..

قالت لي وهي تنعطفُ إلى سطل قُمامة قريب:

- " تعالَ نُفطر أولا، بعدها ننظُر في الأمر!"..

تبعتُها مسرورا، وأنا أفكر في أنني سأفطر لأول مرّة مع أُنثى بجيب فارغ.. بل دون جيوب أساساً!

يوم خارجَ الجسَد

غادرتُ جسدي بعدما تركتهُ قُرب مقهى برأسِ الشّارع. أحسَستُني خفيفاً ومَرِناً. نظرتُ أسْفلي. كُنتُ بلا ظِل. كانتْ فَرْحتي كبيرة. كانَ بإمكاني أن أتنقّلَ كما الملائكة. سأكشِفُ المستورَ من الأشياءِ بكُلّ حريةٍ.. هكذا قُلتُ في نفسي وأنا أقطعُ الشارع.. خرقَتني سيارةٌ دون أن نُحِسّ ببعضنا.. وكَحيوانٍ صغير يختَبِرُ جوارحَه، استمررْتُ في تنقُلي. حرّكتُ أطْرافي إلى الأعْلى. وجدتُني أطير. نعم، أطيرُ بالسُّرعةِ التي أُريد، دون أن أضبطَ نفسي عليها. كُنتُ أضحكُ فرحاً.. وَدون صوت أيضا.

****

لأنّني بلغتُ الخامِسة والعشرين من عُمري، كان لا بُدّ أن تكون لي خطيبة.. وكُنتُ أحبها، وكانت أيضا تُحبُّني.. ولأنّ الخروجَ من الجسد تجربةٌ لا يُستهانُ بِها، فكرتُ أنْ ألتقيَ حبيبتي لأُدهِشها بالأمر..

بِمقْصف الجامِعة كُنتُ أجلسُ دونَ أن يُحسّ أحدٌ بوجودي.. أتنصّتُ على أَحاديثِ الطّلبة السياسية والعاطفية.. لقد كانَ شعوراً عظيماً بِالتّفرُّد. فجأةً دخلت حبيبتي المقصف وهي تتأبّطُ ذِراعَ شابٍّ لا أعرفه. أجالا أعينهما هنا وهُناك ثم انتَحيا رُكنا من أركان المقصف.. تخطّيتُ الطاولاتِ إلى أن بتُ على مقرُبةٍ منهما، وتركتُني أسترقُ السمع إلى حديثهما..

-شعورٌ مُحزنٌ حقّاً أن تتزوّجي قريباً..

- لا تَخشَ شيئاً، سنُحافظُ على لقاءاتنا الخَفيّةِ ..

كِدتُ أسقُطُ من هَولِ الخيبةِ وأنا أُبصرُ جسَديهِما الملتحِمَيْن، وصوتُ قُبُلاتِهما يخترقُ كياني..

رفرفْتُ عَالياً بِيَدي مُغادِراً المِقْصفَ والجَامِعة..

****

من أعْلى البِنايات التي كُنتُ أحَلّقُ فوقَها أبصرتُ صديقي جالساً إلى منضدةٍ رفقة مُدير الشّركة التي أشتغِلُ بِها.. عِندما ملأتُ الكُرسيّ الفارغِ قُربَهُما، سَمِعتُ صديقي يقولُ وهوَ يرشفُ من فِنجانه:

– نعم، يشتُمُكَ في غيابِكَ.. ويُلقّبُكَ بالحُطَيئة..

خفقَ قَلبي بِقُوّة. لا أحدَ ينْعَتُ المديرَ بالحُطَيئة غيري!

– مُمتاز، سآمرُ بنقلهِ اليومَ إلى مكتبِ الحسابات، ليتعلّمَ كيفَ يحترِمُ أسياده..

****

كانتْ أمّي جالِسةً تُقَطّعُ الكَزْبُر فوقَ المائدة، وقد تمدّدَ أبي على الأريكة قُربها. قالتْ وهِيَ تضغطُ على السكّين بِيَدِها فوقَ ربطةِ الكزبُر:

– لستُ أتّفِقُ معك إطلاقاً! عليهِ أن يعلَم الحقيقة، لقَد كَبُرَ الآن.

أجابَ أبي وَهوَ ينفضُ رمادَ سيجارَتهِ داخِلَ المِنفضة:

– ليسَ من السّهلِ عليهِ أنْ يُدرِكَ بعد كُلِّ هذهِ السّنين أنّنا أبَواهُ بِالتّبَنّي. الأَمرُ مُؤلِمٌ حقّاً، صَدّقيني!

****

كُنتُ أُرَفرِفُ بِجناحيّ بِقوّةٍ لِأَصِلَ المقهى الّتي ترَكتُ قُربها جَسدي هذا الصّباح. كُنتُ مُستَعْجلاً دُخولَهُ حتّى أَنفُضَ عنّي رُعبَ النّهار. أردتُ التواري عمّا يُحاكُ خارِجه.كانتْ صدَمتي كبيرةً عِندما وجدتُ جسدي قدِ اختفى تماماً. بكيتُ ساعاتٍ طويلة...

بعدَ أيامٍ وجدتُ جسدي. لَمْ يُكن فارغاً كما تركته. سألتُ الذي كانَ يَعتمرُه:

– من أينَ لكَ بِهذا الجسد يا سيّدي؟ إنهُ جسدي! تركتهُ قبل أيام قُرب مقهى...

أجابَني:

– لا تَندَهِش، فقدْ خرجتُ أنا أيضا، قبلَ شهور، من جسدي وبعدَ جولةٍ يوم شعرتُ بالنّدم، وعندما عُدتُ وجدتُ جسدي قَد سُرِق، بيدَ أن الحظَّ أسعَفني عِندما ألفَيتُ جسدك هذا...

قُلتُ مُتلَعْثِماً:

– ما العملُ إذن؟ أَأَسرِقُ جسدَ أحَدهم؟

أجاب بِبداهة:

– بالتأكيد، فضَحايا الأجسادِ لَن يَنعَدموا، بل سيتكاثرون.. فلا تَقلق!

عِندما عثرتُ على جَسدٍ بعد أيام لمْ تَطُل فَرحتي، فقد أُخبِرتُ أن فاقِدَ جسَدهِ يفقدُ معهُ ذاكِرَتَهُ وتاريخَه. وهكذا صارَ لي جسدٌ وتاريخٌ جديدان.. "لِمَ الحُزنُ إذن؟ فقَدْ يكونُ في تاريخي القديم ما لا يستَحِقُّ أن أتَحسّر عليه".. هكذا قلتُ لِنَفسي وأنا أقْصِدُ أقربَ مقهى...

ساعـةُ الدّيك

في السُّوق قلَّبَ أبي "سَاعةَ الدّيك" بيديه طويلاً تحْتَ أنظار البائع، ثمَّ سأَلَهُ فيما إذا كانَتْ تحتَملُ الماء أم لا..

لم أفهَم قَصدَهُ لحظتها، لكنَّ البائع شَرحَ لهُ بأنَّ هذا السؤالَ يُطرَحُ عادةً فقطّ إذا تعلّقَ الأمرُ بسَاعة اليَد لاحتمال تعرُّضها لِماء الوُضوء مثلاً، أمّا ساعَة الدّيك فلا توضَعُ على اليد، بل داخل الدّولاب.. وقَبْلَ أن يبادر البائع بالشرح، اعتَقدتُ أنّ أبي قصَد هل تحتاجُ هذه السّاعةُ ملْأها بالماءِ عِوضَ البطّاريّة حتّى يتسنّى للدّيك الصّغير الذي كان يتوسّط دائرة الأرقام الشُرب حتى لا يموت عطشاً..

أمّا السّاعةُ اليدويّةُ، فكانت من مظاهر الرفاهيّة تلك الأيّام، إذ كانَتْ حكراً فقطّ على الكبار أو أبناءِ المدينة، الذين كانوا يزورون قريَتنا صيفاً.. لذلك بكيت.. بكيتُ كثيراً فعضَّتني أختي الكُبرى على ظهر معصَمي برفق مُخلّفَة دائرة بأسنانها، وأشارَت إليها قائلة:

- "أُنظر.. ها أنتَ أيضاً تملكُ ساعة .."

لم تدُم فرحَتي طويلاً، إذ سرعان ما انمحَت "السّاعَةُ" من مِعصَمي فعوَّضَتْها أختي هذهِ المرَّةُ بأُخرى رَسمَتْها على جلدي بِقَلم حبر جافّ.. الأمرُ الّذي جعَلني أُهملُ غَسْلَ يدي أياماً خِشْيَة أن تختفي ساعتي، لكنّها انمَحَت مع ذلك فوَجدتُني أبكي مرة أُخرى..

ودسَّت جدّتي ذاتَ مساء في يدي حَفنَة من "ساعَة الحلوى" الّذي كنتُ أكتشِفُه لأوّل مرّة:

- هاكَ يا ولدي.. أُنظُر كم لديْك الآن من ساعة!

كانَت الحلوى عبارَة عن أقراص لذيذة ملوّنة، وقَد رُسِمَت عليها الأرقام والعقارب..

في الخلاء، ناوَلتُ حليمة (ابنَة الجيران) بعضَ الأقراص، ورُحنا نسألُ بعضَنا عن الوقتِ ثم نُجيب إلى أنْ تحلّبَ ريقُنا، فأكلنا كُلّ ما كانَ بِحوْزَتِنا من ساعات ثمّ بكيتُ قبل أن أُبرحَ حليمة ضرباً لأنّها أكلَتْ أيضاً ساعاتي.. وعندما بكَتْ تركتُها في الخلاء وهرَبْت..

في الصّباحِ انتظرتُها على رأس الزُقاق لنذهَب للّعِب خلفَ الجبَل، لكنّها خشِيَتْ أن أنفَردَ بها في الخلاء وأضربَها مرّة أُخرى، فأقْسمتُ لها بـ"ستّة وستّين حزباً" أنّني لن أفعل.. وعندما وافَقتْ أحضرتُ عُلبَة السّردين الصّدئة وغيّرتُ العجلات مُستعملاً في ذلكَ سدّادات قناني زَيْت جديدة.. وملأت حليمة العُلبَة بعرائسها القصبيّة الصغيرة ..وقَبل أن أجرّ العربَة بخيط طويل، طلَبتُ منها أن تصْعَد معي "السّيارة"، فأمسَكَت قميصي من دُبر ثمّ اتجَهنا إلى الجبل..

كانَ أوّلُ شيء صنعتُه هناك أن بنيتُ لنا منزلاً من الوحل والقشّ دخلَتهُ حليمةُ ورتّبَتْ عرائسَها داخِلَه.. وقالَتْ وهي تلتهمُ حبّات النّبق الّتي جمعناها في الطّريق إنّ عليَّ أن أُحضِرَ شيئاً تطبخُه كما يفعلُ الأزواج الكبار ..

لا أدري أي شيطان أوحى لي بالعودة إلى المنزل لأحضرَ خُفية ساعة الدّيك التي اقتناها أبي قبل أيام من السُوق..

وأمام حليمة، أشَرتُ إلى الدّيك الذي لم يتوقّف أبدا عن النُّقب:

- ستطبُخينَ لنا هذا الدّيك بعدما أذبحه الآن..

كسرتُ زُجاج السّاعة بحجر كبير، وقبل أنْ أُخرجَ الدّيك من بين الأرقام سَرسَرَتِ السّاعةُ فجأةً بصوت عال، ولَم تكن حليمة قد سمعتها من قبل، فقفَزتْ من مكانها في فزَع شديد، وعندما ركَضَتْ حافية، تعثّرت بصخرة، فتَدحرَجت بين الأشواك والأحجار ونزّتِ الدّماءُ من

رُكبتَيْها.. كُلّ ذلك وهي تصرخُ في هلع شديد.. كنتُ أحاولُ إسكاتَ سَرسَرة السّاعة وأنا أخبطُها على الأرض بقوّة.. وعندما فشلت مُحاولاتي في ذلك، رميتُ بها..

حاولتُ اللحاقَ بحليمة، لكنّها كانَتْ قَد رَكضَتْ بعيداً.. وأنا أدوس الأحجار جرياً، تساءلتُ إذا كانت ستُخبرُ أمّي أنّني أفزعتُها في الخلاء أم بأنّني قمتُ بتكسير ساعة الدّيك.. وتفادياً لأيّ عقاب مُحتَمل، غيّرتُ وجهتي إلى أقرَب ضيْعة لأختفي بينَ أشجارها حتّى يَحُلَّ اللّيل..

كيف أصبحتُ شاعرا؟

لم يكُن هناك شيء..

كان الله (وهو الذي سيبقى) وأنا وبضعة أعداد من جريدة قديمة، كُنتُ أعود إليها لأحل شبكاتها المسهّمة أو لأُطالعَها جهراً.. وفي خضم الفراغ والغربة والوحدة وأنا بـ"الفرعية" المدرسيّة على رأس الجبل، نشأَت علاقة غريبة بيني وبين تلك الجرائد.. رغم أنني لم أشترها قطّ.. إذ كانت تَرِكَةً من مُعلمٍ مُتقاعدٍ، كان هُنا قبل التحاقي بالجبل.. حفظتُ فقراتها من شدة الفراغ.. بل قُمتُ أيضا بضبطها بالشكل التّامّ وصحّحتُ كثيرا من الأخطاء الّتي ارتكبها صحافيو حقبة ما في هذا البلد السّعيد..

تعلّمتُ الطّبخَ وغسلتُ ملابسي بيدي دون "فرّاكَة"[1] وخطتُ جواربي وشربتُ من ماء المطفية.. وعندما زارني المفتش بعد سنوات قال لي وهو يُعدّلُ من ربطة عنقه الفستقية:

- "عليْكَ بِحَمد الله.. أنت بالضبط عليْك أن تحمد الله**!**"

ولم أستطع أن أساله عن السبب، فقد كُنتُ على مشارف ترقية، وكنتُ أعرف أنّهُ عليّ إخراسَ كلّ نبضاتي والاكتفاء بالابتسامة كأي أبله.. وعلى كُل حال، فالحمدُ لله دوما وأبدا، ولن أنتظر المفتش الأصلع حتى يُذكّرَني بهذا ..

سُبحان الله والحمد لله واللهُ أكبر.. وتّفُو على المفتش، وكُل من عليها فان.. أنا مُعلّم الآن ولا أحد يدري عمّ سيتمخّضُ مُستقبلي. صحيحٌ أنّ الشيب بدأ يغزو رأسي إلّا أنني لا أزالُ شابا مع ذلك.. وسيأتي يوم فيه أغدو من شخصيات البلد الشهيرة، وسأرغم هذا المفتش على حمد الله، بل قد أجعله يكفر به..

اشتريتُ سطل صباغة وجمعتُ التلاميذ لنرسُم جداريات على سور المدرسة.. واختفيتُ وسطهم كي أختبر موهبتي.. إذ كان ذاكَ سببَ مُبادرتي تلك.. والحقُ أن رسوماتي كانت مُضحكة، وقال لي تلميذٌ أمازيغيٌّ لم يتجاوز العاشرة:

[1] فرّاكة: قطعة خشب مُستطيلة بها نتوءات تُساعِدُ على تصبين الملابس.

-"إدْ غْوَادْ أيكانْ الرَّسْمْ أبُو كايو؟!"[2]

وابتسمتُ لحظتها ابتسامة زهو وأنا أمعنُ في جر الفُرشاة جرّاً مُحاولاً أن أُوهِمَ التلاميذ بالتّجريد في التّشكيل، وبعد أيام أخبرني تلميذ آخر أنّ ترجمة عبارة التلميذ الأول هي "هل هذا رسم يا كبير الرأس"..

بتُّ ليلتها أتقلبُ كثعبان يترصّد فريسة.. وما إن رأيتُ الشقيَّ صباحا حتّى ارتميتُ عليه بعصا متينة، لكنّ السافلَ تفاداها برشاقة وقفز على كثير من الصخور، تعثرت رجلي بإحداها وتلطّخَتْ ثيابي بالوحل،فضحك التلاميذُ وفرّ الصغيرُ ولم يعُد إلى المدرسة منذ ذلك اليوم، إلى أن اشتقتُ إليه فقصدتُ منزله وأعدته.. ففي الجبل ونظرا لطول ملازمتي أطفالي، صرتُ أشبههم.. أغضب وأنسى بسُرعة.. بعد شهور مرّ على "الفرعية" بعض شباب القرية ورفعوا جلابيبهم وتبوّلوا على الجداريات الّتي رسمناها وهُم يُدندنون بأغان شعبية.. راقبتُهم من كوة القبو كأرملة تشيع سرقة منزلها بلا حول ولا قوة.. واكتفيتُ بلعنهم سرا..

جرّبتُ بعدها عدّة هوايات.. مارستُ المسرح في القسم واعتقد تلاميذي أنني جُننت، وتناهى الخبرُ إلى المقدّم وحضر مرفوقا بدركيّ وطرحا علي عدة أسئلة تتعلقُ بالإرهاب والانتماءات السياسية.. وقال الدّركيّ وهو يحكّ مؤخرته:

- "إذا كُنتَ تعتقدُ أنّنا أميّون فأنت مُخطئ تماما أيُها المعلّم.. نحنُ نعلمُ أنهُ من الممكن أن تُمَرَّرَ على خشبة المسرح أفكارٌ سياسيّةٌ قد تقلب النظام"..

عن أي نظام تتحدثُ سيادتُك؟.. ولماذا سأسعى إلى قلبه أساساً؟ من أنا؟.. ثمّ إنّ "النّظامَ أساسُ النجاح".. هكذا نُعلّمُ تلاميذنا الأبرار، ولكُم أن تتأكّدوا من ذلك، واسألوا أهالي التلاميذ إن كُنتم لا تعلمون.. ثمّ ما علاقَتي بالخشبة؟ وبالمسرح نفسِه؟ إن أنا إلا مُعلمٌ طيّب.. وأؤَكّد لسيادتكُم مدى حُبّي للنّظام، كما ألتمسُ منكم إبلاغ الكبار، الذين تلتقونهم هُناك.. على المستوى العالي، بمدى شغفي بالسيّد النظام، وتمنيّاتي لهُ بدوام الصحة والعافية...

[2](هل هذا رسمٌ يا كبير الرأس) العبارة باللغة الأمازيغيّة.

بعد شُهور عُدت إلى نُسَخ قديمة مِن جريدة "الاتحاد الاشتراكي"، وزاوجتُ بين ما علق بذهني من قصائد وما أدرّسُ من محفوظات، وصنعتُ نصوصا كثيرة ثم أرسلتُها إلى مكتَب الجريدة.. ولبثتُ أراسل أخي الأصغر الذي كان بالمدينة وأحثُّه على متابعة الجريدة، لكنّها لم تنشر شيئا.. وأخبرني متأسفاً أنه لن يستطيع تكبُد مصاريف الجريدة يوميا دون جدوى، لأنها كادت تعصف بمصاريف أدوية أمي المصابة بالسُكّري.. وحررتُ مباشرة بعدها رسالة إلى بريد الجريدة أؤكدُ لهُم فيها أنني أرغبُ في الالتحاق بحزب الاتحاد الاشتراكي.. وقلت إنني اشتراكي علماني تحرري ليبرالي رأسمالي شيوعي.. وقد أفكر من أجلكم في الإلحاد.. "أرجوكم انشروا قصائدي هذه.. وتقبلوا احترامي التّام.."

خلال عُطلة الصيف ناولَني أخي الأصغر رسالة جاءت من مقر الجريدة رفقة نسخة نُشرت عليها بعض نصوصي.. وقرأت في الرسالة أنّ أحد أعضاء التحرير تعاطفَ مع غُربتي وحماسي وقام بنشرها في انتظار أن أرسل نصوصا تستحقُ القراءة مستقبلاً.. فرحتُ كثيراً وخرجتُ إلى المقهى لأُريَ أبناء الحي ما حققتهُ من إنجاز.. وتوالَت بعد ذلكَ نصوصي على الجريدة.. وقال المديرُ لزوجته مُندهشا عندما أبصَر صورتي على الجريدة "هذا معلم عندي! إنه شاعر!".. لم يقُلها اعترافا بموهبتي.. بل فقطّ ليُذكّرها أنهُ لا يتحكّمُ في المعلّمين فقط.. بل حتّى "الشعراء"..

رحلةُ الصّيفـ

"(حَرفُ السّين)

يأكُلُ سامي السّمك بالسكّين.

يُمسكُ سامي المطريَّة ثم يخرج صُحبةَ سُعاد.

يُسافِرُ سامي إلى الجبل ويقضي أياما سعيدة هُناك.."

سامي يركبُ الطائرة، وأنا أتمشّى حافيا.. سامي يَقضِمُ الكعكَ، وأنا لا أجدُ حتّى خُبزاً حافياً لآكُل.. كرهتُ سامي وكرِهتُ كُرّاسَة القراءة الّتي شنّفَتْ أسماعَنا بأخباره.. وانزوَيتُ بنفسي بأحَد أركان المنزل.. سامي يقضي الآن عُطلَتهُ بمكان ما.. وأنا أُمسكُ الكُرّاسَة حالماً بالصّيفِ والجِبال والشّواطئ والرمال الذهبيّة..

على صفحات الكُرّاسة المدرسيّة، كُنتُ أتأملَ صُورَ أولئك الأطفال الّذينَ لا يُشبهونَ الطّفلَ الذي كُنته.. لمْ تكُن سراويلُهم متآكِلةً على مُستوى المؤخرة والرُّكبَتين.. بل كانوا يَلبَسون سُريّلاتٍ قصيرةً وأقمِصةً أنيقةً مُوحّدة..

أغوَتني الصُوَرُ والكلماتُ صَيْفَئذ وأنا بِمَدينتي الصّغيرة (الدّاخلة)، فتمادَيْتُ في إزعاج أمي عساها تُوفّرَ لي ثَمنَ السّفر حتى أتمكن من التصييف مثلَ كائناتِ الكُرّاسة.. وقد كانَتْ عادَتي أنْ أبكي على أمّي لا على أبي، لأنّني سمعتُ ذاتَ شريط فُكاهي أصدرَهُ المِدعو "أبو معزة"[3] أنّ أحدَ الشّبابِ قالَ لأمّهِ مُهدّداً ذات يوم:

– "والله لأرميَنَّ بنفسي في البئر إن لَم تُعطِني خمسمائة درهم !"

---

[3]أحد أشهر فُكاهيّي سنوات الثمانيّنيات بالمغرب.

- "هاك يا ولَدي، هاك ولا تُرزِئْني فيك!"

وعندما نقَل نفس الكلام إلى أبيه أجابه دون أن يلتفت:

- "ابتعد فقطّ عن بئرنا فقطّ، ثُمَّ افعل بنفسك ما تشاء!"..

كانتْ التِمَاعةُ "أبو معزة" كافيةً لأقصِدَ أمّي عِوضَ أبي.. وذاتَ ليلةٍ أيْقَظَتني المسكينةُ قائلة "طيب يا بُنيّ، سأرسلُك مع الشاحنة إلى الباديَة"..

فرحتُ تلك اللحظة كثيراً لأنني سأزورُ "البادية" أخيراً، رغم أنّنا كُنا نعيشُ ظروفاً أقسى من تلك التي كان يعيشُها البَدوُ سنوات التسعينات بمدينتي الصغيرة، باديَة لا تَنقُصُها إلا الدوابّ..

بالمحلّ الذي كانَ أبي يشتَغلُ به حلاقاً سَمعتُ زبوناً يقولُ له:

- " والله لا تنقصنا غير الزريبة لنصير بَدْواً"..

أجابهُ أبي الذي كُنتُ أفتَخرُ بسُرعَة بديهته:

- "بسيطة، فقط أحِط عائلتك بالسياج وها أنت داخل الزريبة.."

أرسَلَتني أُمّي مع شاحِنةً من نوع "فورد" لحملِ البضائع، كانَ سائقها ابنَ خالي.. إلى البادية الّتي تسكُن بها خالتي.. أذكُرُ أن ابن خالي ضاق بي ذرعا لأنني كرهتُ السّفرَ بسببِ استغراق الشاحنة يومين للوصولِ إلى مدينة مُراكش.. أخافَني برجال الدرك تارة، وبوحوش الليل تارة أخرى، فكففتُ عن البُكاء..

عند وُصولي، استَقبَلتني خالتي استقبالا حارّاً، قدّمت لي سمنا وعسلا وحساءً لا زلتُ أتذكّرُ مذاقَهُ فيتحلّبُ ريقي.. عِشتُ أياماً مَلِكاً بينهُم. كانتْ تقرِصُ ابنها كُلّما حاولَ أن يُشارِكَني الطّعام، وتَصفَعُه كُلّما اشتَكيتُ منه.. ولأنّ العُطلةَ طويلة، فقد ضاقت بي ذرعا

أيضاً، فصَارتْ مع مرور الوقت لا تجدُ حرجاً في قَرصي مُناصِرةً ابنها، كما صاروا يُرسلونني إلى البئر لأسقي الماء كُلّما حانَت وجبةُ الغذاء ليَرتاحوا منّي...

صرتُ أتمشّى حافيا كباقي القرويّين الصغار، ولم تعُد خالَتي تغسلُ ملابسي، وعاشرتُ قميصا وسروالا شهرين بالتمام دونَ أن نفترقَ لحظة واحِدة، و هكذا تآكلَ السروال الجديدُ مرّةً أُخرى وتدلّى مخاطي... وقالَ لي زوجُ خالَتي ذاتَ عشاء:

- " لا بُدّ أن أمّك اشتاقت إليك كثيرا، وأنّها تبكي الآن لأنّك تأخرت عليها يا ولدي.."

مرّ الصيفُ وعُدتُ بملابس مُتآكلة وسحنة أحرقَتها أشعةُ الشّمس ومخاط أصفر فاقع لونُه...

صاحَت بي أمي ما إن رأتني:

- "آويلي من أنت؟"...

لبثَت المسكينة تتردّدُ على مكتَب البريد لتظفَرَ بفُرصة تُهاتِفُ فيها "حمّاد" حارس محطة البنزين" القريبة من قرية خالتي... لكن الصفّ على الهاتف آنذاكَ، كانَ لا يَنتهي بمدينة نائية ك"الداخلة"... وعندما سنحت لها الفُرصة بعد أيامٍ مديدة واتصلتْ بـ"حماد" صاحَت به غاضبة:

- "قُل لأختي رقية هذا هو حق الأخوة يا أختي، هل أرسلتُ لك الولد هكذا؟ ".. قالتها وهي تُشير إليّ بسبّابَتها...

في الطريق فكّرتُ أنّ التلفون اختراعٌ خطيرٌ يجعلُ المرء يسمع ويرى أيضا، "عندما يبتدئ الموسم الدراسي سأخبر أصدقائي باكتشافي هذا".. هكذا قُلتُ في نفسي وأنا أقذفُ قنينة زيتٍ فارغة كانتْ أمامي، وقال كلبٌ غير بعيد "هاو هاو هاووو.."

السّكـابَندو

في العادةِ يباغتُنا كالأيامِ الماطِرة. نعبسُ فيبتَسم. تطيرُ "المِعزةُ"[4] ومعها البقرة وتبقى قدماهُ ضارِبتينِ في الوَحلِ وعيناه تتَرصّدُ حركاتِنا. ننظرُ إلى بعضنا في تدمُّر. عبثاً نُحاولُ التخلُّصَ من شبحهِ الثقيل.

- من هي أمُّكَ؟

- السكابَندو !

- من أبوك؟

- السكابَندو !

- ما اسمُك؟

- السكابَندو !

- أنتَ ضْبَعْ ..

- أنا السكابَندو!

ويُقَهقِهُ حتّى تختفي عيناهُ الصّغيرتان.ويَجري صائحاً:

- "السكابَندو.. السكابَندو"..

لا هوَ بالأبيضِ، ولا بالأسود، سُمرَتُه تُكسبُهُ جاذبيةً خاصّة، ومعَ ذلِكَ فهوَ وحيدٌ. حتّى أثناء اللّعبِ لا يفسح لهُ الرفاق المكانَ إلّا لسدّ ثغرة أو لإتمامِ عدد فريق..

[4](ولو طارت معزة) مثلٌ شعبي يُضرَبُ للتعبير عن العناد والتشبُّث بالرأي، ومفاده أنّ أحدَهم أبصَر حمامة وأقسَم أنّها عنزة، وعندما حلّقَت، قالَ قولَتَهُ الّتي تواترَت بعد ذلك "ولو طارَت معزة"

سألعبُ الذّكيَّ وأُحاصِرُهُ ذاتَ مساء لأقذفها في وجهه:

-إنهم يكرهونك أيُها الأبلَه..

ويضحكُ ضحكةً طويلةً قبل أن يُجيب:

- يُحبونني.. لا أحدَ يكرهُ السكابَندو.. ويلتفتُ مبتَسماً:

- هل تكرَهُني أنت مثلاً؟

- نعم، أكرهك..

يبتسم. أشتُمه. يضحكُ فينيخُ على صدري بثقلِه. أصفَعُهُ بقوة، وعندما أنصرِفُ تلاحِقُني ضحكتهُ وهو يصيح:

- تعالَ، سامحتُكَ... السكابندو يُسامِحُ الجميع..

صبيٌّ غامِضٌ هذا الذي كُلّما التفتنا إليه نجدُهُ يلعبُ بالحصى، ينظُرُ إلى الأفقِ أو السّماء.

نتعمّدُ الابتعادَ فَيُلاحِقُنا بِبُطء وهُوَ يقذِفُ الحصى بِقدَمه، وعِندما يكشِفُ أمرَنا يبتسِم ثمّ يضحَكُ تلكَ الضّحكةَ الفريدة ويصيح: "السكابَندو .."

عِندما نَلعبُ الكُرةَ كانَ يتكوّمُ قُربَ ملابسَنا بلا حَركة، كأنّهُ إحدى قِطَعِها وهو يُمسِكُ بِوجهه مُكتَفياً بالتفرّجِ.

- اسمَع أنت، مهما لبثتَ هُنا، فإنّك لن تلعَب معنا..

- أُحرُسِ الملابسَ يا ضبُع!

لا يَغضَب. لا يحْزَن. لا يَحتجّ. السّكاباندو. ذاكَ هُو. وتَتّسِعُ نظرةُ التّهميش فتلُفّ أُمّهاتِنا:

- لا تَلعبْ معَ ابن بائع الفحم !

يئسنا من التخلُّص منهُ أو كشفِ كُنهِه وسرّ ابتسامَته الغامضة. عندما تعِبنا صارتْ أفكارُنا حولهُ بدورِها سكابندو وغامضة. كلُّ شيء صارَ "سكابندو"..

ذاتَ يوم مُمطر طرقَ بابَ منزلنا، وعندما ألفيتُهُ صفَعتُهُ قبل أن يُقدّمَ لي زوجيْ حذاء سميك هامِساً:

-أهدتنيهِ خالتي وقلتُ إنّهُ سيُلائمُكَ..

ثُمّ ركضَ وقد شعرتُ به يكتمُ بُكاءهُ. لم أرَهُ يبكي أبداً...

عِندما سألتني أُمّي عمّن مدّني بالحذاءِ يومها أقنَعتُها أنني عثرتُ عليهِ قُربَ الوادي.
- احذَر أن يسرِقهُ منك ابنُ بائع الفحم..

قُربَ الضّاية الكبيرة، أوهمْنا السكابَندو قبلَ شهور أنَّنا نَرغَبُ في أن نسبَح ونحتاجُ زعيماً يقفزُ إلى الضّاية لنَتشجّع..

- أنا.. السكابندو، سأقفِز..

على حافّةِ الضّايَةِ الملوثةِ وقفَ وهو ينظرُ إلى صفحتها. وقبلَ أن يقفِزَ عمدَ بعضُنا إلى الدفعِ به بقُوّة، فسقطَ السكابندو سقطةً أطارتْ على ثيابِنا رذاذ الماءِ العكِر. مُبلّلاً صعدَ على يديهِ ورُكبتيهِ كمن يفِرُّ من لهيبِ نار رهيبة. ودون أن يلْتفِتَ ركضَ السكابندو ملءَ رُكبتيه لا يلوي على شيء، وقد غطّى وجههُ بيديهِ فيما كانَ صُراخُه قد ملأ الأجواء. السكابندو لم يبتسِم. لم يُقهقِه كما توقّعنا. السكابندو يصرُخُ من ألَم غامض. السكابندو، ما الذي حصل؟

أذكُرُ أنّنا تفرقنا لحظتها وقد أجمعْنا أمرنا بيننا ألا شيءَ حدث.. لمْ نرَ السكابندو ولمْ يُلقِ بهِ أحدٌ إلى الضاية كما سيَدّعي..

بِتُّ ليلتها مرعوباً. ستنشُبُ أمي أظافرها في عُنقي لِسَببين: اللعِبُ مع ابن بائع الفحم، ثمَّ المشاركةُ في جريمة جماعيّة...

لمْ يطرُق بائعُ الفحم بابَ منزل أحدِنا، ولزمنا الصمتَ، بله لم نعُد نذكرِ السكابندو في أحاديثنا. لقدِ اختفى. السكابندو اختفى كما لم يتوّقعْ أحدُنا.

وفجأة، وفي غيابهِ سيتلَبّسُني شعورٌ شديدٌ بالنّدم. حاولتُ مراراً أنْ أطرُدَ هذا الإحساسَ باستدعاءِ بعضِ خطاياهُ لكن دون جدوى. كانتْ ابتسامتُهُ تأتيني مُنكرَةً عليّ مكرَنا وظُلمَنا.

لقد افتقَدتُ السكابندو أخيراً.

ذاتَ ليلة استغرقت فيها ثرثرةُ الجاراتِ أمّي، نادتْ علي وأدخَلتني إحدى غُرفِ المنزل ثم غلّقتِ الباب. داهمتْ فزعي قائلة في همس رهيب:

- ابنُ بائع الفحم أُصيبَ بمرض جلديّ خطير، ولا أحدَ يعرِفُ السبب.. إياكَ أيها الشقيّ أن تلتقيه فتُصابَ بالعدوى..

أحسستُ بطُمأنينة في بدايةِ الأمر، لكن ما لَبثَ حُزني وندمي أن تفاقما حتى صِرتُ انعزالياً وشارِداً في أغلبِ الأوقات.

ذاتَ غَفلة من أمي، تسللتُ عبر الزقاقِ المظلِمِ الّذي يمُرّ عبر البيُوتِ الطّينية. من خلفِ دار بائع الفَحم، تسلّقتُ الجدار مُحاولاً القَفزَ حتّى أتبيّنَ حقيقةَ ما شيعَ حول السكابَندو، لكِنَّ المشهدَ الذي صَدمَ عينيّ تركني مُعلّقاً فوقَ الجدارِ بلا حراك. تحتَ قوائمِ العجولِ كانَ السكابَندو يحبو بلا بوجهة مُحاولاً اتقاءَ رفساتِها، وقد قُيّدت رجلاهُ الحافيتانِ بسلسلة

حديدية متينة مشدودة إلى وَتَد ضُرِبَ تحت الجِدار الطّوبي. كانتْ ثيابهُ مُمزّقةً ومُثقلةً بقذارةِ الدّوابّ. راقبتهُ دونَ أن أتحرّك من مكاني. كانت ذراعاهُ النحيفتانِ وساقاهُ العاريتانِ مرقّطة بطفح جلديّ أحمر. لم ينتبه إلى وجودي لأنّهُ كانَ مُنهمكاً في الحركةِ وكُلّما أصابتهُ رفسةُ عجل ندّت عنهُ آهة ألم. فجأةً كدتُ أهوي إلى الأرضِ فتشبثتُ بالطوبِ. التفتَ إليّ بسُرعة فخفقَ قلبي بقوة. كانتْ عيناهُ مُبيضّتيْن، شعرتُ بهلع شديد، فقفزتُ بِسُرعة إلى الزّقاقِ كاتِماً صرخةً ضجّ بها صدري وركضتُ مُسرعاً بِلا وجهة..

يومٌ من أيّامِنا الماطِرةَ يجمَعُ الصّغارَ من جديد بعدَ شُهور. السّماءُ تُمطرُ، والذئبُ يُقيمُ عُرسَهُ[5] خلفَ الغابةِ الكبيرة..

السّكابندو مات.. مات السّكابَندو..

كيف سأذكُرُ من حملَ إلينا الخبرَ لحظتها، وقد نسيتُ يومئذ الوحلَ الذي كانَ يُعيقُ جريي. كُنتُ أركُض إلى القريةِ وقد رشح جسمي بعرَق كثير رغم المِطر والبرد.

هل ماتَ السكابَندو؟ لماذا مات؟ هل ماتَ السكابندو؟ م ا ت ال سـ ك...؟

كان حشدٌ من النّاسِ قد اجتمَعَ أمامَ منزل بائع الفحم. تلقّتني أمّي بيديها عندَ البابِ ثمَّ أبعدتني..

– هلْ جُنِنت؟ إنهُ الطّاعون.. ستموتُ إن دخلت.. ابتَعِد أيُها الشقيّ...

في غَفلة مِنها، تسلّلتُ إلى الزّقاقِ الضيّق لأتسلّقَ الجِدار الخلفيّ لمنزِل بائع الفَحم...

كانَ السكابَندو مُمدّداً على بطنِهِ، وقَدِ انغرَسَ فأسٌ في رأسِهِ جعلهُ مُثبّتاً على الأرض. وكانتِ العجولُ قد تراجعتْ إلى إحدى زوايا الزريبة وتكدّست بها مُبتَعِدةً عنِ الدّمِ الأحمرِ الذي اختلطَ بالرّوثِ والوحل. لبِثتُ أحملقُ في جُثّةِ السكابَندو وقدْ لفتَت انتباهي انثناءَةُ

[5] عُرسُ الذيب في الثقافة الشعبية المغربية يُحيلُ على ظاهرة قوس قُزَح.

أنامله مُشكّلةً قبضة صغيرة. تساءَلتُ إن كانَ لا يزالُ يذكُرُني. قَدْ يكونُ سعيداً الآن بالجلبةِ التي أحدثها لأول مرة في حياته. عندما أطلتُ التأمّلَ في جسمهِ خُيّلَ إليّ أنّهُ دَخلَ عالمَ الكِبارِ لأنّ سكونَهُ استفِزَّ طفولتي لحظتَها. شعَرتُ بالحسد. هل يُمكِنُهُ الآنَ أن يَقبلَ صداقَتي؟

في اللّيلِ كانت أمّي تحكي للجاراتِ عنِ الطّاعونِ والعدوى عشراتِ المرّاتِ، ثم تختمُ كلامها قائلةً:

لكِن الحَمدُ للّهِ على لُطفه، بائعُ الفحم أَنهى خَوفنا، لولاهُ لهلكَ أبناؤنا..

تَذكّرتُ فأس بائع الفَحم. تذكّرتُ السّكابَندو وانثِناءَةَ أنامِلهِ الدّقيقة وسكونِهِ الغامِض، فندّت عنّي شهقَةٌ بُكاء. التفَتت إليّ أُمّي فَزِعةً:

ما بِكَ؟ ما بِكَ يا حَبيبي؟

صِحتُ قبلَ أن أُجهشَ بِالبُكاء:

أكرَهُ السكابَندو يا أُمّي.. أكرَهُ السكابَندو!

من مذكرات قطّ أليف

نعم، الفروُ ناعم.. ناعم جداً، إلّا أن المخالبَ حادّةٌ أيضاً.. أستطيعُ أن أتكوّمَ كأي قطٍّ أليفٍ وأُطأطئَ رأسي في وَداعةٍ دونَ أنْ أكشِفَ عن تِلكَ المخالب شريطةَ أن أأْمنَ شرّ اليَدِ الّتي تُداعِبُني ..

الآن مثلا، أشعُرُ بالحنانِ والدّفء، ويدُ بنت ربّ المنزِلِ تُداعبُ فروي بِأنامِلِها.. لا تَفعلُ الأمر محبّةً طبعاً، بلْ فقط لِتُوهِمَ خطيبَها الذي يجلِسُ قُبالَتها الآن، أنها فتاةٌ حالِمةٌ وتُحِبُّ القِططَ كما أي أميرة حَسناء.. وكُلّما التصقا ببعضهِما في غفلة من الآخرين، ضغطا عليّ بثِقلِهِما في غير وعي، حتى تكادُ روحي تُزهق بينَ جسَديهِما، ويتضايقُ الخطيبُ قائلا:

- "تخلّصي من هذا اللّعين!"

فتُمسكُ بِي اليدُ النّاعمةُ من ظَهري وتُلقي بي تَحتَ المائدة...

أنا قِطٌّ مَنزلِيٌّ أليفٌ، أحبُّ السّمكَ وقِطعِ الجُبن. لستُ مِن هُواةِ الأساطيرِ الّتي تتحدّثُ عَنها القِططُ المتشرّدة.. لا أرغبُ أن أكونَ بطلاً يحمِلُ مِن الخشونةِ والقذارةِ ما يَجعلُ أحذيةَ البشَرِ تُطارِدُهُ.. هُناكَ حياةٌ واحِدةٌ ووحيدة.. أريدُ أنْ أحيَاها دونَ مشَاكل.. وعلى ذِكرِ الحياة الوحيدة، فإنّني أعجبُ كيفَ يعتَقدُ بعضُ البشرِ أنّ القطّ لهُ سبع أرواح. إنّ الأمرَ مُضحكٌ فعلاً، ومُحزِنٌ في نفس الوقتِ، سيّما وأنا أتذكّرُ وفاةَ أُمّي قَبْلَ سنتَين تَقريبا.. ماتَتْ ولَمْ تحيَ تارةً أُخرى. خرَجتْ ذاتَ صباحٍ خَرجتَها الأخيرة في صمتٍ، كما تَنتهي كلُّ الكائنات التي فضّلَ اللهُ عليها الإنسان بنعمةِ "العقل". لم تَخرُج أمّي محمولةً داخِلَ نَعشٍ كما يَحصُلُ مع بَني البشَر، ولَمْ يَمشِ في جنازَتِها أقاربُ أو نائحون.. بل خرجتْ مَشدودةً منْ ذَيلِها قبلَ أن تدورَ

في الهواء كما المروحة، لِتَستَقرّ داخِلَ مكبّ النّفايات، وسَمِعتُ الذي رَمى بِجُثتها وهو يَنفضُ يديه مَزهواً بدقّة تصويبه:

«Ah ! sur mesure »

وسَقطَتْ جُثتها فوقَ تلّ القُمامةِ كما تَسقُطُ أيّ قُمامة جامدة غير مرغوب فيها. كُنتُ أُتابِعُ المشهدَ وأنا مُنزوٍ قُربَ الباب. وكانَ عليَّ أنْ أُمثّلَ مرّةً أُخرى، أمامَ ربّ المنزل، دورَ الحيوانِ الّذي لا يُحسُّ بشيء. فَنحنُ لا نُحسُّ بالحُزنِ ولا بالفرح.. نُحسُّ بِالجوعِ والعطَش فقط.. هكذا علينا أن نكون وكفى، لذلكَ تابعتُ المشهدَ في صَمتٍ وحياد أيضا. وعندما فَتحَ الرّجلُ الباب آذِناً لي بالدّخول، شعرتُ بِشيء أشبهَ بِالخيانة، إذ أحْسستُ أنني جُزءٌ من المنزِلِ فيما تراءت لي جُثةُ أمّي قذِرة عَفِنة تُثيرُ الاشمئزاز.. فهِمتُ لحظتَها لِمَ كانتْ رَحِمها اللهُ قليلةَ النُّصح، فهي لم تكن تتحدثُ عن الحياةِ والأعداء والكيد..إلخ، كما تفعلُ أيُ أمّ آدمية.. لقد كانتْ تعرِفُ أن هذا المشهَدَ البسيطَ كافٍ لأفهمَ كُلّ شيء. سأقطعُ ذيلي إذا ما أحسستُ بِقُربِ نِهايتي...

أنا الآنَ تحتَ المائدة مُتكومٌ في كَسَلي. أُراقِبُ الأجساد من الأسفل. أحياناً أضحكُ في داخِلي وأنا أسمعُ ربّ الأُسرةِ يشرحُ الظواهرَ الكونيةَ لِزوجتهِ أو يَعِظُ أبناءه.. أضحكُ وأنا أُرفِقُ صوتَهُ بِرائحة جوربيه الخانِزين. مِنَ الحِكمةِ أنْ يُرى العالمُ مِن الأسفل. تتراءى ثُقوبُ السّراويلِ عميقة كُلّما تخطّاني أحدُهم.. أميّزُ أصحابَ المنزل بنِعالِهِم وأحذيَتِهم. وأقيسُ لُطف ورفاهية الناس من خلال مظهَرِها، تماماً كما يفعلُ ماسِحو الأحذية..

ششــتْ! حضَر الآنَ بقيةُ أهل المنزل، ولن يكونَ بِإمكانِ الخطيبين أن يَلتصِقا بِبغضِهِما طبعاً، لذلكَ سأستَلذُّ بِمُتابعَةِ السّيقان والأقدامِ الملتصِقة من تحتِ المائدة، ورغم أن المشهدَ خفيٌّ، إلا أنهُ أكثر صِدقاً.. لماذا؟

رُبّما لأنّ الأقدامَ ليست لها عيون!

لوحة العربة

السّدادةُ الفلّينيةُ الطّائشةُ الّتي لاحَتْ على سطحِ النّهر هذا الصّباح، كانت صغيرة جِدّاً، ومعَ ذلكَ تقاذفتها الأمواجُ على التّوالي حتّى أخرجَتها إلى الحافة الموحلة، لتستقرّ أمامَ حذاءٍ جلديّ سميك، قبل أن تلتقطها أصابعُ مُرتجِفة تحتَ وابل الأمطار الثّقيلة.. وبَعدَ بُرهَةٍ من الرّعشةِ والبرد، استَيقظت داخِل الجسَد المـمَعْطفِ غريزةُ التّعذيب وعادَتِ الأصابعُ لِتَرميَ بها إلى النّهر الغاضِب.. بيْد أنّ الأمواج — هذه المرّة– تجاهلتْ ثقلها، وما إن أيْقن الرّجُلُ أنّ المياهَ لنْ تُعيدها أبداً وهوَ يراها تبتعِدُ شيْئاً فشيئاً، حتّى تلبّسهُ خوفُهُ القديمُ من النّهر، فَتحرّك بمعطفهِ الثّقيل كدُبٍّ أسودَ نحو البيْت القريب ثُمّ دفع بَاب البيت الريفي دون أن يسحبَ يديْه من جيْبَيه..

كانَ تأثير عشْرِ قنّيناتٍ منَ الجُعة قدْ تلاشى تحْتَ خيُوط الأمطار، لذلكَ سارعَ بإخراج زُجاجة نبيذ من الثلاجة الصغيرة وصبّ لنفسه بضع كؤوس مُتتالية. تجشّأَ بصوتٍ مسموع وجالَ بنظراته داخِل المرسم الفَسيح. مَن أرسلَ بتلكَ السدّادة عبر النّهر؟ من ذا الّذي خطرَ على بالِه أن يُذكيَ جذوة ذكرىً بعيدة؟ تذكّر.. تذكّر كُلّ شيْء، وتذكّرَ اللّوحةَ.. "لوحةَ العَرَبَهْ".. لَم يكُن يَعلمُ أينَ كان قَد وضعها، لكنّهُ أيْقَن أنّه يومُها الأخير. صبّ كؤوساً أُخرى وتأمّل اللّوحات الكثيرة الّتي تؤثثُ فضاء المرسم بفوضويّة. وأحسّ بأنّها أجزاء مِنه، وعندما أطالَ التأملَ فيـها شعرَ أنّها لا تَعنيه، وأنّها تشغل قسطا وفيراً مِن بيْتِ وحياتِه.. وتذكّر لوحةَ "العربَهْ".. وتمنّى لو أنّها كانتْ محض خيال.. لكن هيهات!.. لوحة العربة موجودة بالفعل، وبالضبط في إحدى زوايا المنزل.. نعم، حتى إنه هوَ من شكّلها بأدواتِه..

كان يُدركُ أنّه ليس من السهل إضاعة تلكَ اللوحَةِ، إلّا أنّ الوُقوف على حافّة النّهر أعادَ نبشَ الجُرح القَديم. صبّ كأساً آخر ثُمّ عنّتْ على بالِه حيلةٌ قَد تُخلّصُه من اللوْحَةِ بِقليلٍ من الأسف.. وكمجنونٍ راحَ يحملُ اللّوْحاتِ تِباعاً ثم يُلْقي بها حطباً إلى نارِ المِدفئة.. وشعرَ أنهُ يَحْرقُ معها آلافَ كلِماتِ الانبهار والمجاملة الّتي راكَمتها طِوالَ السّنين بَيْن الأروِقةِ

والمعارِض.. دفن في رمادِها ابتسامة مُعجبَته الأولى وحبيبَته أيضاً.. وشعر بِنَدَم لذيذ وهو يرى صُفرةَ النّار تلتهمُ عشراتِ الألوان.

بعد لَحظاتٍ كانَ المرسمُ قَد أُقفِرَ إلّا من الفُرشِ المختلفة وصوتِ نقراتِ المطر القويّة. صبَّ كأسَيْنِ آخريْن استِعداداً لاغتيال اللّوحة الأخيرة، والّتي لم تكُن بالمرسَم أساساً.

قامَ الجِسمُ المثِقلُ بالأمطار والثمالة إلى غرفةِ النّوم ثمّ عاد مُمسكاً باللّوحة وهو يُحلقُ فيها تحتَ ضجيج الأمطار الّتي تكادُ تهوي بالسّقف من قُوّتِها. دنا منَ المدفأةِ كأنّما تدفعُهُ يدٌ غيْرُ مرئيّةٌ من الخَلف. كانتْ أصابعُهُ مُتشبّثةً بإطار اللوحَة تشبُث رَضيعٍ بأنامل مُولّدة. وفكّر أنّ الأوانَ قد فاتَ للتراجُع وقَد راحَتْ فداء هذه اللّوحةِ لوْحاتٌ ثمينة جداً.. "فَليَضِعْ كُلُّ شيءٍ الآن!" هكذا غمغمَ لنفْسه..

****

أغمضَ عَيْنَيْهِ ورفَع يُمْناهُ الّتي تحملُ اللوحةَ إلى أعلىً. لبثَ كتمثالٍ تاريخيّ للحظات، وعِندما التَفتَ خلفهُ أطلقَ صَرخةً مدويّةً اغتالَها صوتُ الأمطار وخريرُ قنوات الصّرفِ بسُرعة قاتِلة. عادَ يرمقُ اللوحةَ بِعينينِ دامعَتين، وكَطفل صغير احتضنها وهو يبكي بصوتٍ عالٍ.

توجّهَ بها إلى مكتَبهِ وجسدهُ ينتفضُ بُكاءً. جلس إلى منضدَةٍ خشبيّة ثم أسند اللّوحة أمامه، وراحَ يتأملُها باكياً.

****

كانتِ اللوحةُ تُظهرُ عربةً تحملُ صبياً وسيّدةً بملابسَ ريفيّةٍ.. يسوقُها رجلٌ أصْلع.. متى رَسَمْتُ هذه اللّوحة؟ ولماذا رسمتُها؟ ثم لماذا سجنتُ تِلكَ الذّكرى بفُرشاتي؟ لماذا؟..

تركتُ اللوحةَ مُسندةً إلى الجدارِ وتحرّكتُ صوْبَ الفونوغرافِ وغرستُ الإبرة في الأسطوانة.. بعدها عُدتُ إلى اللّوحَةِ مُنتظراً أن يُعلنَ المايسْترو بَدءَ السيمفونيّة .

هَوى المايسترو بعصاهُ وهوى –في نفس اللحظة– الأصلعُ بسوطهِ على ظَهْرِ الدّابّة فتحرّكَت العربةُ وأملتُ رأسي على كَتِفِ أمي والعربةُ تهتزُ من تحتِنا ولا شيء يَحمينا مِنَ البَردِ والأمطار ..

لبثتُ أُحملقُ في رقبةِ الخادِمِ الأصْلع التّي كانت قَدْ رشَحت بقطرات المطر.. ثعابينُ البردِ تَتسلّلُ من تحت معطَفي وأنا ألوذُ بدِفء أُمّي.. لماذا سبقني أبي وأخوايَ إلى "الموسْمْ".. لماذا تركاني أنا بالذّات؟.. لماذا ترَكاني؟.. لماذا أنا بالذّات؟.. وهتَفَ هاتفٌ منْ داخلي أنّ الأطفالُ الصّغارَ مِثلي محكومٌ عليهم أن يلبثوا مع أمهاتهم حتّى يكبروا. وقالتْ أمّي " سيَكونُ موسْم هذه السّنة أكثر رواجاً من السّنة الماضية".. ولَمْ يُسعِفْني البردُ والحزنُ كَيْ أُعقّب. وقَد كانَ منَ المؤكّد أنّها توجهت بالكلام إليّ وحدي.. إذ إنّ الخادِمِ الأصلع كانَ أصمَّ أيضاً. تذكّرتُ أبي وأخويّ بجلابيبهمُ الصّوفيّة.. وقد علَت شفاهَهم ابتسامةً موحّدة.. هلْ يُحِبُّهم أكثَر منّي؟.. كادَت أن تطفرَ دمعةٌ من عيْني إلّا أنّ الأمطارَ كانتْ قَد بلّلت وجنتيّ قبلها. وفي إشراقَةٍ مُفاجئةٍ تذكّرتُ كلامَ أبي فجْرَ هذا اليومِ وهوَ يَهمسُ لي ذاتَ خُلْوة قائلاً "أنتَ الآن حَللتَ مكاني.. اهتمّ بأُمّك.. سأسبِقُك إلى الموسْم مُطمئنّاً! .."

وأخرجَتْ أمّي منْ جرابها كسرة خُبزٍ مالح وناولتني إيّاها في صمت.. ورُحتُ أقضمُها قبل أنْ تأتيَ عليْها الأمطار. هل سأرى "سُمَيّة" في "الموسْم"؟.. سأفرحُ بلقائها! قد يمنعُني أبي من اللّعبِ معها كما دأب.. لكنّني سأجدُ الفُرصةَ للاختلاء بِها، هذا مُؤكّد! وقد تتواطأُ أمّي في استِغباء.. هل أنا رجُل كما يقول أبي؟ لماذا يخافُ على ابنة الجارِ منّي؟ أنا رجُلٌ إذن.. لكن، لماذا يسبِقُني مع أخويّ إلى "الموسْم" ويتركُني صُحبةَ أُمي؟ .. وعندما وصَلنا إلى النّهر، التفتَ إليْنا الخادِمِ الأصلع بِملامِح آسِفة.. مددنا عُنقيْنا ورأينا أمواج النّهر التي كانت تتعالى كوحوش مائية.. وتخيلتُه أفاعيَ خُرافية تترصّد العابِرين.

أوقفَ الخادِمِ الدّابّةَ وأفهمَ أُمّي، بإيماءاتهِ وملامحه، ألّا حلّ سوى عُبور النّهر فُرادىً عبرَ الصُخور. وعندما تساءَلَتْ عنْ مصير العرَبة، أفهمهَا بيديه أنّ الأمرَ مسْتحيل، لذلكَ سنتركها والدّابّة هُنا إلى حينِ عودَتِنا مِنَ "الموسم" الذي لم تعُد تفصلُنا عنهُ غير مسافة قصيرة..

لم يَنتظِر الخادِمِ موافقَة أمّي، إذ بادَرَ بِحَملي بذراعيْه القويّتَيْن وراحَ يخطو فوقَ صخور النّهر بِحذر تحتَ أنظارِها المتوجّسةِ والخائفة.. كنتُ أرى الأمواج من تحتي وهي تكادُ تتلقّفُني من بيْنِ يديه.. وكلّما تمايلَ خفقَ قَلبي بقوّة وأطلقتُ صرخةَ ذُعر.. إلى أن نجحنا في العُبور.

عندما وقَفنا على حافّة النّهر أخرج من جَيبِهِ حبلاً كان يستخدمهُ لربطِ الدّابة.. ثمّ ربطهُ إلى جذعِ شجرةٍ قريبةٍ وأومأ إليّ أن أساعِدَ به أمّي عند عبورها ثُمّ عادَ ليَصْحِبَها..

تحرّكتْ أمّي فوقَ صُخورِ النّهر وهي تشدُّ ثيابها في حذر.. وعِندما رأيتُ الخادِم الأصْلعَ يُفردُ ذراعَيْه خَلفها خِشْيةَ سُقوطِها صِحتُ غاضِباً:

"لا تَلمَسْ أُمّي أيُها الأصلع! لا تَلمَسْها!"

ولبِثتْ ذراعا الأصمّ ممدودَتين خلفها، وأحسستُ بغضَبٍ شَديد وصرختُ باكياً.. لم أحتَمل أن يَلمَسها وأنا أتذكّرُ وصيّةَ أبي. وفي لحظَةٍ مُفاجئةٍ تحرّكت صخرةٌ تحتَ الخادِم فتزحزحَ ثم سقطَ بنصف جسمه إلى النّهر واستدارت أمي لتُمسكَ بيده وصرختُ بقوّة تحت الأمطار الّتي ازدادَت حِدّتُها:

"لا! لا تَلمسيه يا أمّي! لا تَلمسيه!"

وعندما رأيتُ اليَدَ المنقوشَةِ بالحنّاء غارقة في يَد الأصلعِ المعروقة القويّة داهَمني الجنون، ولَبثتُ أصرُخ وأصرُخ.. صاحَتْ أمّي مُنحنيةً ورجلا الخادِم تُصارعُ الأمواج:

"ارْمِ بالحبل، ارْمِ بالحَبْلِ بسُرعة !"

وأُجيبُ باكياً:

"أرجوك يا أمي! أُتركيه.. لا تلمَسيه !"

"أرجوك يا حبيبي، ارمِ بالحبل.. أرجوك يا بنيّ !"

قُلتُ وقد علا صُراخي:

"لا، سيغضبُ أبي لأنّك لمِستِ يَد الخادِم"..

وتحرّكتِ الصّخرةُ من تحتِ أمّي فهَوتْ بِنصْفِها إلى النّهر ثمّ ما لبثَتِ الأمواجُ أن ابتلَعتهُما.. واختفيَا ثمّ لاح جسَداهُما ورأيتُ الخادِمِ يُطوّقُ جسدَ أمّي بذراعيه العاريَتيْنِ ويُصارعُ الأمواجَ بقوّة إلى أن أمسك بصخْرَة على الحافّة.. دنوتُ منه وأنا أصرخ:

"دعْ عنكَ أمّي أيُها الخادِم الأصلع !"

كانتْ أمّي قد ابتلعت ماءً كثيراً، فتركَتْ جسدها تحتَ رحمته ورأيتُ عينيها مُغمضَتَيْن.. وانكشف شعرُها..

أمسكتُ بالحَبْل وصِحتُ:

"لا تلمَس أمّي أيُها الخادِم، سأُخبِرُ أبي"..

أردتُ أن يتركَها لأرميَ لها بالحبل لكنهُ كان يُحكمُ طوقهُ عليها وهو يستجديني بعينيه أن أناولَهُ الحَبل. وعندما نفد صَبري التقطتُ حجارةً وخبطتُ بها وجههُ فأطلقَ الصّخرةَ الّتي كانَ يشبّثُ بها وجرفهُما النّهر قبلَ أن أرى دمَهُ يُخضّبُ الأمواج. تركتُ الحبل.. وأنا أركُضُ خلفهُما على حافّة النّهر.. وعندما اختَفتِ الأيادي بَيْنَ الأمواج بَقيتُ أصرخُ باكياً تحتَ المطر:

"ماذا سأقول لأبي يا أمّي؟ ماذا سأقول؟"

وابتلعَت أمواج النّهر صُراخي، قبلَ أن أسقُط مُغمىً عليّ..

****

لا يتذكّرُ كمّ مرّ عليه من الوقتِ وهُو داخِلَ مرسَمه ذاك الصباح، إذ عندما أفاقَ من غَيبوبَته وجدَ نفسهُ مُمدّداً على الإسفَلْتِ وقَد حضنَ اللوحةَ إلى صدْره.. حملقَ فيها مُجدّداً. كانَت العربةُ لا تزالُ واقفةً في مكانها، ولا تزالُ السيدة وابنها تجلسانِ خلفَ الرجُل الأصلع ..

"حانَ الوقتُ لأتخلّص من هذه الذّكرى الملعونة!".. هكذا أسرّ لِنَفسِه وهو يتّجهُ باللوحةِ نحو نارِ المِدفأة...

حكاية الرأس الذي أغلق باب المؤسسة

كنتُ لا أزالُ صغيرا، على الأقل بالنسبة للقميص الذي أورثني إياه أخي الأكبر، وكانت مدينة "الداخلة" صغيرةً أيضا إبّانَ التسعينيات.. كل شيء كان صغيراً تقريباً، عدا الرأس الذي كنتُ أحمله بين كتفيّ.. وقالت المعلّمة إنها لن تستطيعَ أن تُدرّس طفلاً برأس بذاكَ الحجم لسببيْن: أولاً لأنها تتشاءَم من ذوي الرؤوس الكبيرة، ثم لأنها تمر من مرحلة الوحم... حاوَل المدير الأكْرَشُ أن يُقنعها مُستبعداً أي احتمال لِأذيتها في ذريّتها –لا سَمَح الله– لكنهُ فشل.. وفي الطّريق إلى كوخنا كنتُ أبكي، لأنني لا أقوى على فراق الدّراسة بسبب المطعم المدرسيّ الذي كان أبناء أحياء الصّفيح يستفيدون منهُ دونَ غيرهم..

كانَ أبي لا يزالُ يتوسّطُ محلّ الحلاقة بسرواله البلديّ وهو يثرثرُ وسط الزّبائن، وعندما تناهى إلى علمه خبر فصلي عن المدرسة بسبب رأسي تألّمَ قليلاً، وحاوَل زَبون شيخٌ أن يُقنِعَهُ بأن يدُسّ في يد المدير مالاً كي يحوّلني إلى فصل آخر، لكنّ أبي أبى قائلا إنّه لا يملكُ شيئاً و"إنّنا –معشر الحلاقين– نعيشُ وسط الشعر كما القمل، وأنّ الدراسة لا تنفعُ المؤمنين والفقراء، لأنهم لن يستطيعوا إنجازَ شيء حتّى ولو درسوا، فالنّصارى وأبناء الأغنياء هم كل شيء.. يستطيعون أن يصنعوا التّلفاز والمذياعَ والمقصّ والكُلّاب.. من صنع كل هذه الأشياء؟ هل صنعها ابن حجّام؟ لا طبعا، لقد صنَعها أبناء المهندسين والمخزن والأطباء والقوّاد وربما القوّادين أيضاً.. لأنّ الحياة– بنت الـ...– لا تمنح الفقراء غير الأوبئة والفيضانات والهموم... ثم إنهم لن يستطيعوا اختراع سيارة أو صاروخ أو حتى طائرة لـ"تُطير لبُوهم الشقف "[6].. وتذكّر أبي "الشّقفَ"[7] لحظَتها، فركن إلى إحدى زوايا المحل مُخرجاً "السّبسي"[8] من داخل جوربه.. وعندما أسقَط الشّقف الثالثَ، تطلّع إليّ كأنه يراني أوّل مرّة وتساءَل: "ماذا جئت تفعل هنا؟" وتدخّل الزبون مرة أخرى: "الله يهديكْ يا السي إبراهيم، لقد جاءَ ليُخبِركَ بنبإ فصله عن المدرسة!".. وحرّكَ أبي رأسه متداركاً "أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم!.."

[6] "الله يطيّر لبُوكْ الشّقف" عبارةٌ يقولها البدو المغاربة للدُعاء على المرء بزوال أثَره

[7]"الشقف" أداة صغيرة تُملأُ بمسحوق القنَبِ الهندي وتوضعُ في فوهة الغليون المغربي الطويل (السَّبْسي)

[8]السّبسي: الغليون المغربي الطويل

بكى أخي الأصغَرُ كثيراً عندما علم أنني لن أحملَ إليه مُجدّداً خُبز المطعم المحشوّ بالدّجاج الأبيض.. ولم تستطعْ أمّي إسكاتَه وقالتْ إنّها ستُرسِلُني إلى الميناء لأشتغِلَ به كباقي أقراني.. هناك سأجدُ صديقي الأصلَع "الصّمَدي" عند باب الميناء، وعندما أخبرتُه بما حصل بالمدرسَة تطلّعَ إلى رأسي الكبيرَة ثم ضحكَ طويلاً، وعندما استشعَر غضَبي ربّتَ على كتفي ثمّ اقترح عليّ أن نعْمَل مع أحدهم، وكانَ يشتغل "ميّاحاً"[9] للقوارب، وشرح لنا الرجُل الّذي أخافَني شاربَه الكثّ، أنّ مهمّتنا هي مساعدتهُ في تنظيف تلك القوارب.. وهمسَ "الصّمدي" في أذني ألا أخاف، لأنّ الرجُلَ طيّب وهو يشتغل بعدّة صنائع لكنّ رزقه غير ضائع، كما يشتغلُ أيّام "البوناني"[10] بابا نويلاً بمحل تصْوير بالمدينة.. قاطعتُه مُصحّحاً "إن البابا نويل يسقُط من الشّمس كما تقولُ الأسطورة !".. وابتسَم "الصّمدي" مُطمئناً إيّايَ أنّ هذا البابا نويلْ لم يسقُط إلا من قرية قريبة، بل هو خالُه!".. تساءَلتُ بعد هذا الاكتشاف هل يُمكنُ أن يكون أولئك الآباء نويلْ الذين أشاهدهم داخل صندوق تلفازنا أيضاً يشتغلون صيفاً بتنظيف القوارب ببلاد النّصارى؟.. يُحتملُ أيضاً أن يكون لكُلّ منهم ابن أخت أصلع كـ"الصّمَدي"، ومن المحتمل أكثر أن يكون جالساً الآن قُرب طفل تسبّبَت رأسه الكبيرة في فصله من المدرسة.. قاطعَ "الصّمَدي" توارُد أفكاري مُحدّثا إيايَ عن مخلّفات الفيضان الأخير الذي كان قد ضَرب مدينة الدّاخلة قائلاً: "لقَد فقدنا أختنا الصّغيرة، ولم نجدْها إلا بعد شهر تقريبا تحتَ قنطرة، كما فقدنا بغلتنا الوحيدة، وعدّة أثاث منزليّة.." وطمأنتُه أنّ المخزنَ لا بُدَّ أن يأخُذَ حقّهم لاحقا، بيْد أنهُ أخبرني أنّ المخزنَ عادَ فعلاً، إلا أنهُ لم يأخذ لهم حقّا، بل أخذَ أخاهُ الأكبَرَ ثم اقتادهُ إلى المخفَر ثم إلى السّجن لأنهُ شاركَ في مظاهرة بُعيْدَ الفيضانَ الكاسِح...

اشتغلتُ شُهوراً بالميناء أنظّفُ القواربَ من فضلات الأخطبوط، وملأتُ جيبَ مريلة أمّي بالنُقود، وقالت إنها راضية عنّي دنيا وآخرة، إلا أنّ أبي وجدَ مشكلا آخر، وذاكَ أنهُ سيحتاجُ من يكتبُ لهُ رسائلَ إلى عائلتنا بمراكش، وأنهُ كان يعقدُ الأملَ عليّ فقط، وعليَّ أن أعودَ إلى المدرسَة فوراً، وأنهُ سيبذل قصارى جهده كي لا تُغلق رأسي الكبيرة عليّ باب المدرسة من جديد.. احتجّت أمي على الأمر طويلاً، لأنّ المدرسة لا تُعلّمُ غير الكتابة والهضرة، وأنّ

---

[9] الميّاح: شخص ينظفُ القوارب
[10] البوناني: يُقصَدُ بها في اللسان المغربي الدّارج رأس السنة الميلادية Bonne année

"الهضرة لا تشتري خُضرة"[11]، لكن تنظيفَ القوارب جلبَ لها الكثير من المال، واقترحَت على أبي ما يفعلُه البدو بمدينة "الدّاخلة" للتراسل تلك الأيام، وذاكَ أنّهُم يعمدون إلى مسح كاسيط الأغاني بالآلة المِسّجلة، ثم يُسجلون فيها أخبارهم كاملة، ويقومون بعْدَ ذلكَ بإرسالها عبر سائقي شاحنات الغنم إلى قُرى مُراكُش، وهكذا تستطيعُ العائلات هناك معرفة أخبارِ بعضها صوتاً ..

اقتنعَ أبي باقتراح والدتي، وقام بمسح كاسيط للمُغنّي الشعبيّ "بوشعيب الزّياني" مُكرهاً، ثم اجتمعتِ الأسرة ليتحدثَ أفرادها أمام المسجلة ..

في الطّريق إلى مُراكش، وبدافع الفُضول والفراغ، وضَعَ السائقُ الشريط داخل مُسجّلة الشاحنة، وطفق يُنصتُ لأخبار العائلة الدّقيقة، لكنّ لسانَ أبي الطّويل كالعادة أدّى إلى ما لا يُحمَدُ عُقباه، إذ كانَ قد استبْعد احتمال إنصات السّائق إلى الكاسيط، وهو الّذي قال وسط التّسجيل أنّ على جدّتي من أمّي أن تُقنِعَ هذه الأخيرة بضرورة إعادة "الولد" إلى المدرسة، لأنهُ غير مُستعدّ لأن يدفع في كل مرّة ألف فرانْك لعريض القفا سائق الشّاحنة كي يحمل الكاسيط إلى مُراكش.. وعندما سمعها السّائق أخرجَ الكاسيط من مُسجّلة الشاحنة، وكسّرها بأسنانه ثم رمى بالشريط الأسود قبل أن يصِلَ مدينة "كُلميم"..

[11] "الهضرة ما تشري خُضرة" مثل شعبي مغربي يُقصَد به أنّ الكلام وحدهُ لا يجدي شيئاً، ولا يستطيع أن يجلب مالاً لشراء الخُضر مثلاً.

Le Zmagri[12]

الكلبُ ينبحُ خارج دارنا الفسيحة، وأنا أجلسُ تحت السّقيفة القصبيّة مُستنداً الحائط الطوبي.. أنسى أنّ أمي حذّرتني من الأفاعيَ الّتي تخرُج من الأغوار الصغيرة المحفورة في الجُدران خلال الصيّف، وتقُول (عْمْر كلب الله يستر، لا عقرب لدغتك، ولا شاحنة الفحم صَدمتك!).. تقول هذا وتخافُ عليّ من الدّيدان الصّغيرة، حتّى تلك الّتي يكونها سببُها التهام قطع وافرة من السُّكر.. و"عموما، فالأفاعي لا تخرُج من الجدران"، قالت جدّتي (لأبي) ثُمّ أردَفَت:

-"الأفعى الوحيدة التي خرجت لَم تخرُج من حائط، بل من قرية "الرحامنة" ولدغت أباك الأبلَه"..

قالتها مُشيرة بعكّازها صوبَ أمّي الّتي كانت تعجن الفطير تلك اللحظة.. وقال أبي في السُوق للحجّام الذي كان يُمررُ موساهُ الصّدئة فوق صلعته باسماً: "النساء خُلقن من ضلع أعوج.. قالها "السيد النبيّ"، ومن يهتمُّ بحماقاتهنّ يستحقُ العصا"..

أنا أُحبُ أمّي، وأحب جدّتي أيضاً، ولا أفهم لِمَ أرسَلت هذه الأخيرةُ بآنية ساخنة ذات شتاء إلى وجه أمّي جعلتها تُواظبُ على زيارة صانع الأسنان بالفيلاج المتاخم لِقريتنا شهُورا مديدة.. وعموماً، فالصيف لا تخرجُ فيه العقارب، على الأقل بالنّسبة لي، وما أخافها ولو خرَجت، لأنّ الصيفَ يحملُ لي خوفاً من نوع آخر يمتدُّ شهراً كاملاً.. وذاك أنّ ابن خالتي (الزّماكري) كُلّما حلّ بقريتنا، انطفأَتْ شمعتي، واشتعلَت مصابيحُه.. أمّي تقبّله، وجدّتي تمسح على شعره ذي التّسريحة الناعمة قائلة: " يا سبحان الله! يُشبهُ نصْرانياً[13] تبارك الله والصلاة ع النّبي!" وتصيحُ أمّي " الله يحفظه من النّصارى الذين قتلوا السيد النبي ونفَوا محمد الخامس!".. وتُعقّبُ جدَّتي (لأبي دائماً) من فناء الدّار وهي تمسحُ رأسها بماء الوضُوء:

[12] Zmagri (الزماكري) تحريفٌ لكلمة Emigré وجمعُها Les émigrés وتعني "المُهاجرون"، وتُطلَقُ عادةً على المغاربة القاطنين بالخارج.

[13] في الثقافة الشعبية المغربيّة كلمة "نصراني" تُطلَقُ على الأوروبيين أو الأجانب بصفة عامة، دون أن تكون لها بالضرورة حمولة دينية.

"النصارى هُم أهلُك الّذين أرسلوك إلينا في العربة قبل عُقود.. الله يأخذ فيهم الحقّ بجاه سيدي علي بن يحيى[14]!".. ثُمّ تتوجهُ بيديها إلى السّماء مُتمتمة بكلمات غامِضة..

ابن خالتي زماكري، وقد يكون نصرانياً، وأنا أريدُ أن أكون نصرانيا أيضاً كيْ لا تتجاهلني "حكيـمة" ابنةُ عمّتي..

كُنا نقطفُ التّين ذات صباح صيفيّ بالضيعة عندما حاولتُ إفحامهُ أمامها قائلاً :

– "هل أنت نصراني؟ .."

– " لا أعرف"

– " لكنّكم تعيشُون بالخارج، أنتم نصارى.. النصارى هم الذين يعيشون بالخارج"

– "نعم"

– "لكنّك لا تظهرُ على شاشة التلفاز، رأيتُ عدّة نصارى على التلفاز ولم تكُن أسرتُك بينهُم"

واستطردتُ عندما شعرتُ أنّني حاصرتُه كفأر صغير:

– "هل التقيت يوما بروسْ لي؟"

– "من هو بروسْ لي؟ أنا لا أعرفُه"

وقهقهتُ ضاحكاً لحظتها.. لكنّ "حكيـمة" أحبّتهُ رغم أنهُ لا يعرفُ "بروسْ لي"، وأفهمتُها أنّه لا يُمكنُ أن يكون نصرانيا لأنّ عينيه سوداوَان وشعره أيضاً ليس بأشقَر..

فشِلَتْ كُل محاولاتي في إبعاد هذا الزّماكري عن "حكيمة"، واستقرّ رأيي أخيراً على الاستعانة بـ"الورد البلدي" الذي دشنتُ معرفتي به ذات إمساك خطير أشهرَ مُؤخرة أخي الأصغر في القريَة قبل سنوات.. إذ كانَ نصفُ سطل من "التّين المشوَّك" سبباً كافيا لهرولَة نساء الدوار إلى منزلنا حاملات مغَارفَ مُختلفة الأشكال وزُليفات الزّيت كي يفُككن ورطة أخي الذي كانَ يتأوّهُ في باحة الدّار متألماً، ولم تنجح مُحاولاتهُنّ إلا بعد العُثور على "الورد البلْدي" الّذي جعلَ أخي –بعد شُربه– يُلَطّخُ ملاءات المنزل بقذارته ذات صباح...

[14] أحد الأولياء المعروفين بالمغرب.

جلبتُ بعضاَ منه من أحد زوايا المطبخ، ورُحتُ أترقّبُ موعدَ العشاء كي أضع العُشبة السّحرية في صَحن الزّماكري حتّى أفضحَ قذارَتهُ أمام "حكيمة"..

لم أعُد أذكرُ ما حصلَ بالضّبط تلك الليلة، إذ كانت "حكيمة" قد فطنت إلى حيلَتي مُبكراً، فعَمدت إلى تغيير صحن الزماكري بِصَحني ذات غفلة مني..

أما الكارثة التي حلّت بي في نفس الليلة، فتلك فعلاً قصة أخرى..

طائري الذي لم يُحلّق

إلى الفنّان طارق البُخاري، صديقاً مُقرّباً وطفلاً رائعاً

صحيحٌ أنّني لا أتذكّرُ كم كانَ عمري، لكنّني أستطيعُ أن أجزمَ أنّهُ كانَ آخر عَهدي بحمّام النّساء العموميّ، وذاكَ عندما أقسَمت القيّمةُ عليْه قسَماً غليظاً ألا أدخله مُجدّدا.. لن أنسى توسُلات أمّي الّتي باءَت بالفشَل وهي تُحاولُ إقناعها أنّني لا أزالُ صغيراً و"لا أعرفُ شيئاً"، بل طالبَتها بدليل يدعو إلى منعي من الدخول، عندما جاءَ ردُّ القيّمةُ بنَبرة حاسمة: "لقَد صارَ ابنُك يسهُو داخل الحمّام يا ربيعة .."

والحقُّ أقوله.. سعدتُ –ساعَتها- كثيراً بالقرار، لكن أخي الأكبر همَس لي أنني خسرتُ فُرصة رؤية الحمائم العارية إلى الأبد، كما خسرها هو أيضا من قبل.. ولم أفهم كلامه إلا بعد مدّة..

لا أعرفُ هل هو الحنينُ الذي فعل فعلته، أم شيء آخر ذاك الذي جعلني أولعُ بالطيور بكل أنواعها منذُ طفولتي، الأمرُ الذي سهّل مهمّة الحجّام عندما أوهمَني خلال حفل ختاني أنّ ثمة طائراً يحلّق في السماء، حتى لا أفطن إلى سبب حمله المقص..

بعد أيام نزَعتُ جلبابي الأبيض، وطربوشي الأحمر، ونسيتُ ألمَ الختان، إلا أنّ هوَسي برؤية الطيور المحلقة ظلّ راسخا.. وكنتُ أنتظرُ دائما مجيء خالي الذي كان يشتغل بسيرك المدينة، عسى أن يجلب لي مرة ما عصفوراً من تلك العصافير الّتي قالت أمّي أنهُ يُخرجها من معطفه على الخشبة وسط ذهُول المتفرجين وتحت أنظارهم المشدوهة وتصفيقاتهم الحارة.. لكنّ أمنيتي لم تتحقّق للأسف، ولم تكن معلوماتي عن السيرك –أيامها- تتجاوز ما كان يبثه مساء كل سبت تلفازُنا.. الذي طالما انتظرتُ أن أرى خالي الساحر على شاشته يوما، دون جدوى..

وظللتُ أعتقد مدّة طويلة أنّ الحمائم الّتي كان يحضرها خالي من المدينة، لم يكُن يقتنيها كما يفعل البشر، بل كان يُخرجُها من معطفه كما يفعل زملاؤه السّحرة الذين رأيتُهم على شاشة التلفاز.. وعندما سألتُ أمي عن الأمر ضحكت طويلاً وهي تنتف ريش إحدى تلك الحمائم للعشاء..

بقيتُ مؤمنا بخوارق ومُعجزات خالي عامل السيرك، إلى أن أخبَرني أبي لاحقاً بسرّ خطير، زعزعَ اعتقادي الطُفولي وألقى بأحلامي بعيداً.. وذاك أنّ "خالك لم يُخرج حمامة أو أرنباً من معطفه قطّ، وأن مهمّته في السيرك كانت تقتصرُ فقط على كنس بُراز فيلة عجوز، تمّ الاستغناءُ عنه فور وفاتها.."، آنذاك فهمتُ سبب استقراره نهائيا بالقرية وعدم عودته إلى المدينة..

وها هُوَ جدّي، الّذي أحبَبتُه أكثر من أي شخص آخر، يُدخلُ الفرحة على قلبي، عندما فاجأَني ذات صباح بفرخ حمَام، ابتاعَهُ من السُوق المتاخم لقريته النّائية.. أتذكّرُ كم علقة تسبّبَ فيها ارتباطي برفيقي الجديد تلك الأيام، إذ علاوةً على درس الكُتّاب الذي أنساني إياهُ أياما طوالاً، فقَد ضاقَت أمّي ذرعاً بالبَزق الذي نثَرهُ على الأفرشة والأغطية، وقال لي أبي ذات مساء: "اصبر على فرخك حتّى يكبر، واعتنِ به جيّدا كيْ تبيعَني إياه".. وشممتُ في كلامه رائحة الغدر، سيّما أنّ اللّحم لم يكُن قد وجد سبيلاً إلى بطوننا شُهوراً بسبب الجفاف الّذي صيَّرنا حيواناتٍ عاشبة شهوراً مديدة.. وقال جدّي وهُو يمسد شعري الطويل:

– "إنّهم لا يرحمون من في الأرض يا ولدي، ولن يرحمهم من في السّماء.. "لاليمان"[15] أيضاً عصَوا ربّهُم وعثوا في الأرض، فأهلكهم الله بقبائل "احْمَر" و"الشّياظمة" و"عبدة"[16] إبان حرب "لاندوشين"[17]، وقضَوا عليهم جميعا لأنّ الله أرسَل مع المسلمين ملائكة لا يراها

[15] لاليمان (تحريف لكلمة "الألمان")
[16] "احمر" و"عبدة" و"الشياظمة" من القبائل المغربية الّتي شاركت في بعض الحروب العالمية أيام الحماية الفرنسية.
[17] "لانودشين" يُقصَدُ بها الحرب الهند-الصّينيّة.

غيرهم، وبعيني هذه الّتي لا تُبصر الآن، رأيتُ ملاكاً يناولني الرّصاص بعد أن نفذت ذخيرتي.. إلخ .."

كنت أجلسُ حاضناً فرخي الصّغير قُرب بقّال الحيّ، عندما مرَّ خالي على دراجته النّارية.. وكانَ المحرّك يُطلقُ شرارة نارية خفيّة، وشاء الحظُّ السيئ أن يتزامنَ مروره مع لحظة كان يُنفّسُ فيها البقّالُ قنّنية غاز صغيرة لزبون ما، وفي رمشة عين كانت قد وقَعت الواقعة، عندما ضُرب بيْن الحانوت والدّراجة بسور ناري فجأة، قَفز خالي إثره هارباً، تاركاً ألسنة اللهب تعيثُ في الدراجة فساداً ..

لبث الخالُ يرمق النّار حافياً دقائق إلى أن خمَدت، ثمّ ركضَ إلى المحلّ ليُخرجَ صاحبَهُ –الذي كان قد اختفى فزعاً–، وراحَ يخبطُه بقوة حتى أيقَنتُ أنهُ سيقتُلُه، ثمّ حمل هيكل الدّراجة بذراعيه القويتين واختفى..

كُنّا متحلقين حول جدّي ذاكَ المساء بعد أن حكيتُ لهم ما حدث، وأخذت جدّتي تخبطُ أطرافها صارخةً:

– "هذه نهايته، سيُرسلونَه إلى السّجن لا محالة!.."

أمّا جدّي فقد وجدَ في الموضوع فُرصة ممتازةً ليُعرّجَ بالحديث على محرقة اليهود على يد "هِتلر"، وأقسَم أنّ الله سيغفرُ له ما دامَ انتقم منهم.. ومدّ رجليه مُنتشياً وهو يتحدّثُ عن يوم أسَرَ "هتلر" شخصياً أيام كان جنديا بصفوف الجيش الفرَنسيّ، وكيفَ نشأت صداقة عميقة بينهُما، جعلتهُ يُحررهُ بعدما أخبَره بما فعلَهُ في اليهود أعداء الله.. وقالتْ جدّتي:

– "ألا تصمتُ قليلاً؟ هل هذا وقتُ "لاندوشين"؟ نريد حلاً لهذه المصيبة! .." – – "أُصمُتي يا جاهلة، أنت لا تعرفين هتلر، ولو عرفته لأغلقت فمَك القذر.."

– أنتَ تعرفُ هتلر، ولا تعرفُ أحداً في الرباط كيْ يتوسّطُ لنا لحل هذه المصيبة التي ستصلُ إلى المحكمة؟

في الليل، أيقظَني جدّي، ليُخبرني همساً، أنّ جدّتي لم تجد بُداً من ذبح الفرخ على رأس خالي، وذلك بغية تمويه رجال الشُرطَة بالدّماء.. وذاكَ ما حدثَ فعلاً، إذ كانت شهادةُ العجز الطبية التي حظيَ بها خالي سبباً في تردُّد البقّال أياماً على منزلنا يطلبُ العفو..

اشترى خالي درّاجة نارية جديدة، وعفا عن البقّال المسكين وعادت المياه إلى مجاريها، لكنّني بكيتُ الفرخ شهوراً، ولم أستطع أن أنساهُ لحظة.. وشارَكني أبي الأسَف عندما قال "لم تفرحَ به أنت، ولا نحنُ معك.."

برأس الدّرب كانَ جدّي يمسد شعري الطويلَ مرة أخرى.. وخفق قلبي فرحاً عندما وعَدني بأن يبتاعَ لي فرخ حمام آخر ذاكَ الأسبوع، شريطة أن أحفظَ عنهُ حكايات الأولياء الصّالحين: "السيد النّبي" الذي ردَّ عين قتادة، ومحمد الخامس الذي بانَ في القمر[18]، وهتلر قاهر اليهود.. لكنّ يدَ الموت كانت أسرَع من كُلّ ذلك، إذ استيقظنا ذاتَ صباح على صِوات جدّتي وأمّي قُرب جثّته السّاكنة.. نظرتُ إليه في صمت دون أن أبكي.. لا أعرفُ لماذا، لكنّ الحزنَ على حكاياته الّتي لم أسمعها بعد ذلك، والفرخ الذي وعدني به، أنبَتَا بذرة حُزن رافقتني سنوات..

[18]إبّان ثورة المغاربة على الاستعمار الفرنسي، ساد اعتقادٌ شهير في أوساط الشعب أنّ الملك محمد الخامس ظهَر على القمر ليلَة نَفْيه.

لماذا كره الهاشمي اللوبيا؟

ما حدث تلك الليلة لم تكُن سببهُ أزمة سياسية ولا اقتصادية، رغم أنّ جميع أهل القرية تحدثوا عن الواقِعَةِ طويلاً وقطعَ بها الشبابُ النبيذ تحت الصبّار لياليَ مديدة.. وعادَت أختُ الهاشمي إلى قدر اللّوبيا متسائلةً للمرّةِ الألْفِ كيف لهذه السّافلة (اللوبيا) أن تُمرّغَ كرامةَ عائلة أصيلة بأكمَلها في الوحل!..

حدث كلُ شيء فجأة ودون توقّع إطلاقا.. ووجدَ الهاشمي نفسهُ صباحا يُقرفِصُ أمام جدّته مُقسما بالقبلة وبـ"سيدي مبارك" و"للّا عايْشة البحريّة"[19] أنّ ثمة عيناً تترّصّده، ولا شكّ أنّهُ راحَ – على الأرجح- ضحيّةَ تميمةٍ دسّتها عجوز حاقدةٌ في جيْبِ بذلته الجديدةوسْط ضوضاء الاستعداد للخطبة.. وعندما تناهى الخبرُ إلى فقيه القرية الذي كان يمقتُ "الهاشمي"، رفعَ عصاهُ في الهواء ضاحكا ومؤكّداً ألّا عينَ تتبعهُ إلّا تلك الّتي يتبرّزُ منها..

الهامشي المجازُ المعطّلُ الشهيرُ يخطبُ فتاة من المدينة.. خبر لا كالأخبار.. طيّب، سيُسهلُ له الله ما صعُب، وستهمسُ الأفواه من ورائه:

– "أرزاق!"

وستنقُل أختُه كلامهم إليه وسيبتسِمُ في زهو أمام المرآة وهو يُعدّلُ ربطة عُنقه الّتي لم يلبسها قطُّ قبل ذلك.. وانزعجَ قليلاً عندما رأى في هيئته شبهاً كبيراً بينهُ وبينَ فردٍ من أفرادِ أوركسترا الأعراس.. لكنهُ فكّرَ أنّ المظهرَ لا يهمّ أبداً، وأنّ ما يحملهُ داخل رأسه من ثقافَةٍ وأفكار سيجعلانه يقنعُ اليهودَ بالإسلام أو العكس..

[19] أسماء أضرحة بعض الأولياء بالمغرب.

رَكِبَتْ عائلتهُ العربَة ذلك المساء، وحملت معها قوالبَ سُكّر كثيرة وتمراً ونعجةً سمينة..

وأقسم الهاشمي ألا يركبها معهم حتّى يُحافظ على أناقة البذلة الّتي لا تُناسبُ مظهر العربة ورائحة بعر الدّواب.. وآثَرَ المشي خلفهم من بعيد..

لم تكن القرية بعيدةً عن المدينة، لذلك تحمّل الهاشمي المشيَ دون أن يشعر بالتّعب، وعندما أبصَرَت أختُ الخطيبة العربة والحمار من الشرفة كتمت ضحكتها، وهرولت عائلتُها مرحبة بهم.. ودسّ الهاشمي درهما في يَدِ أخي الخطيبة الصّغير ثم صعد الدُّرج بتؤدة تليق بذلك اليوم المشهود.

كانَ كُلُّ شيءٍ على ما يُرام، وصمتَ والِدا الهاشمي كما اقتضَت وصيّتُهُ كَيْ لا تُجرّ لكنتهُما البدويّة ضحكات عائلة الخطيبة فيُصابَ الجميعُ بالإحراج، هكذا وجد نفسهُ وجها لوجهٍ مع أبيها وإخوتِها وهو يستعرضُ عضلاته الفكرية.. خاضَ في السياسة ولعنَ الإسلاميّين والعلمانيين والليبراليين، ثم عرّج على واقع الكُرة واقترح أسماء مُدربين لا يعرفهم غيره، واستعذبَ صمتهم وصوته وراح يُعلّقُ على أي شيء عنّ له بلا كلل ولا هوادة، وهو يمدُّ رجليه مُحرّكاً أصابعها داخل الجوربَين السّميكين..

كانت الأمور تسير كما اشتهت نفسه تماما، لولا وجبة اللوبيا الّتي كان قد التهَمها بعد العصر بمنزله.. إذ خفتَ صوته فجأة، ورشحتْ جبهتُه بالعرق وراحَ يتململُ في مكانه كامرأة فاجأها المخاض وقد أحسّ بثقل موجع في معدته.. وعندما أشارَت إليه أخت الخطيبة بمكان المرحاض قام مُهرولاً ودسّ قدميه في نعلي أمّه ثم دفع الباب وصفقه خلفَهُ في عنف...

وضع الهاشمي ما وضع، والله أعلم بما وضَع، لكنّ الراحةَ الّتي أحسّ بها وهو على كرسي المرحاض جعلتهُ يزفر زفرة طويلة، واطمأنّ أكثر عندما سمع أصوات العائلتين وهي تتصاعدُ تدريجيا.. وعندما استطال جلوسه داخل المرحاض قرّر أن يعود من جديد إلى المجلس، وما إن أدار الصّنبور حتّى صعقتهُ المفاجأة وهو يكتشفُ انعدام قطرة ماء.. جال بعينيه داخل

المرحاض، وحرّك السّطول بيدَ أنه لم يجد حفنةَ ماء يُداري بها الخطيئة التي تَقبع تحته.. وبعد أن تأكّد ألا حولَ له ولا أي قوة، جمع سروالهُ ثم أقفلَ الباب خلفه ليتسلّل إلى البهو ويجلس في إحراج شديد.. كانت أصواتهم تأتيه بعيدة، وكان شاردا عن الجميع وعينه على باب المرحاض، وعندما دخلَ أخو الخطيبة الأصغر المرحاضَ خرج بسُرعة وهو يُغلقُ منخاريه محركا يديه في تقزُّز.. وسمعهُ يهمسُ داخل المطبخ في أذن أخته بشيء ما..

لم يدُم صبرُ الهاشمي طويلاً، إذ سرعانَ ما قطع الحديث مُشيراً إلى والديه بالقيام.. وسبقهُما إلى تحت درج العمارة دونَ أن يودّع عائلة الخطيبة..

بعد سنين طويلة، يجلسُ الهاشمي الآن تحت شجرة زيتون بجلباب باهت ولحية مُهملة في صمت.. وكُلّما مرّت به طائفةٌ من أطفال القرية نادَوهُ بلقبه الشهير في استفزاز "وا اللّوبيا!" ثم فرّوا مُختفين وهو يُطاردُهم بالحجارة بين الحقول..

تلك الحادثة الغريبة.. الّتي قلبَتْ حياةَ الهاشمي رأساً على عقب، كره بسببها الزواج واللوبيا والكثير من الأشياء...

السروال الأبيض المُتوَسّخ

كانَ أصلعَ حافياً، وكنتُ ألبسُ السّروال، وكنّا نحملُ أيضاً محفظتيْن جلديتين ونحنُ مُتوجّهان إلى المدرسة.. واستيقظَتْ داخلي غريزةُ الشّرّ مرةً أُخرى لأنني كنتُ سعيداً لحظتَها، وكان لمعانُ صلعَة الصبيّ يُغريني بصفَعةٍ مَسموعة، إلا أنني تذكّرتُ تحذيرَ أمّي الدائم من عدوى القَمل، فعدلتُ عن الفكرة، لكن الرغبةَ في الصّفع بقيَتْ قائمة لم أستطع مُقاومتَها، فأحكَمتُ شدّ محفظَتي وتراجعتُ إلى الخلفِ قليلاً دونَ أن ينتَبه الصبيُّ ثمّ خبطتهُ بقدمي على ظهره إلا أنّ المحفظةَ الثقيلةَ وقَتْهُ الألَمَ ورُحتُ أركُضُ هارباً، وتذكّرتُ أنّ اللهَ سيُعذبُني لأن المحفظةَ لا بُدّ أن بداخلها كُراسة القُرآنَ الكريم.. وكنتُ أُمّني نفسي آنئذ بالنّجاة من فَلقَةِ المعلّم فقط، إذا علم بالأمر، أمّا الله فأعرفُ أنهُ غفور رحيم.. وعندما اختفَى الصبيُّ عن ناظريّ توقفتُ لأستجمعَ أنفاسي التي لم يُسعِفني تلاحُقُها لأستغفر الله العظيم.. حملَقتُ طويلاً في سروالي الأبيض الذي كُنتُ سعيداً به يومها، وعجبتُ كيْفَ لقطعة ثوب بيضاء قديمة أن تُدخل الفرحَ على قلبِ قرويّ صغير مثلي، في الوقتِ الذي أرى فيه أبناء المدينة يملكون عدّةَ سروايلَ ومع ذلك لا ألاحظُ على قسماتهم أي أثر للسعادة والحُبور..

قبل أيام وأنا نائمٌ بخيمتنا، أيقَظتني بعد مُنتصَف الليل مَعِدتي الممتلئة، وكانَ دوري في ارتداء السّروال الأبيض بمنزلنا، والّذي كُنا -أنا وأخي- نلبسهُ بالتّناوب من شدّةِ الفقر.. الأمرُ الذي جعلَ أبي يقترحُ بحسم على مُدير المدرسة أنْ يُخالف تَوقيتَيْنا حتّى تتسنّى لنا الاستفادة منَ السروال الوحيد معاودون مشاكل.. وهكذا كان..

قُمتُ ليلَتها بمعِدتي الممتلئةِ أركُضُ وقد عرقَ جسمي الضّامر رَغم البرد القارس، كنتُ متوجّهاً إلى الخلاء لأُفرغني من ثقلي، إلّا أنّ الطّامّة حدَثَت، وداخل السروال بالضّبط، وأي سروال يالله؟ الأبيض.. الوحيد.. الّذي نحفظُ أدوارنا لارتدائه أكثر من حفظنا أسماء أيام الأسبوع.. كُنتُ أجري بسروالي الممتلئ كعسكريّ يركُضُ وسط الوحل، وما إن وجدتُني بالخلاء وحيداً قُربَ المزبَلةِ حتّى نزعتُه ونزلتُ إلى البحر عاريا إلا من قميصي ثُمّ غسلتُ أطرافي جيّدا ولَم أعُد إلا بعد انبلاجِ خيوط الفجر..

انسَللتُ إلى الكوخ خُفيةً ثُمّ اندسستُ داخل الأغطية وقد اطمأننتُ إلى عدم وجود أي رائحة.. ثم نمت..

استيقظتُ على صياح أخي وقد كشفَ غطائي قائلاً:

- "أين السّروال؟"

واستنجدتُ بأُمّي مُوهماً إياها ومُقسما بالقُرآن الكريم أنّ الدّور كان على أخي وليس عليّ.. ولَم تُصدّق أياً منّا بل نقَلت خبر اختفاء السّروال إلى أبي، وحدَثت الكارثة..

لبِثنا ثلاثةَ أيّام دون دراسةٍ ونحنُ مُختفيانِ داخلَ الكوخ، وكُلّما مرّ أبي بأحدنا صفعه على رأسه بقوّة قائلاً:

"يا حمير الله!"

وكُلّما دخلت فتيحة ابنةُ الجيران سارعتُ إلى الاختفاء خلفَ قنينة الغاز الكبيرة، وسارعَ أخي إلى الاندساس تحتَ الأغطية..

وقال عمّي لأبيذات زيارة:

- "لا بأس، وعليك شراء سروال جديدٍ لهُما لأنّ البردَ سيُجمّدُ أطرافهُما يوماً ما"

وتذكّر أبي السّروالَ مرّةً أُخرى فقام يرفسنا بقدميه رفساً حتّى تعب ثم بصق علينا وعاد ليُتمّ الغذاء ..

كُنّا سنبقى رهينَي الكوخ لولا الفرجَ الّذي أتى على يَدِ أُمّي يومَ بشّرَتنا بعُثورها على السّروال الأبيض أخيرا، وقد حدثَ ذلك صُدفة، عندما أبصرت ابن جارتنا يرتديه، فقامتْ بنزعه منهُ كرها، وتوجّهَتْ بالجارةِ إلى مخفَر الدّرَكِ مُتّهمةً إياها بسرقته من حبل الغسيل، وسمعتُ الجارة المسكينة تصرخُ شارحة أنها لم تسرق شيئا وما ينبغي لها، فقط وجدتهُ قبل أيام مُلطّخا بالـ... قُربَ المزبلة، ولم تعرِف أنهُ لنا، فقامت بغسله وتقديمه لابنها الوحيد، وهبّ أبي يجرُّ الأرملة قائلاً:

- "والله لأكوننّ السبب في سجنك أيتُها المجرمة!"

وتُضيفُ أمي حاسمةً:

- "جميعُ الدُوار يعرفون أنّ ابنَيْ فُلانة هُما من يملكان السّروال الأبيض دون غيْرِهما!"

وبقيَت الأرملة تصرخُ باكية إلى أن اختفى صوتُها..

كانتْ أمّي تحكي في زُهوّ كيف أنّ الجارة السارقَة كانت تُقبّلُ رأسها أمام الدّركيّ نادمة، وتلقّفتُ السّروال الأبيض النّظيف من يدها فرحاً ولبستُه صباحاً، ومررتُ على صديقي لأذهب من جديد إلى المدرسة..

كانَ أصلعَ حافياً، وكنتُ ألبسُ السّروال، وكنّا نحملُ أيضاً محفظتيْن جلديتين ونحنُ مُتوجّهان إلى المدرسة..

الذبابة

كانا وَحيدَيْن.. وحيدَيْن تماماً، وكانت ثمّة ذُبابةٌ مُلَتصِقةٌ بالجِدار الأصفَر.. وتساءَل فيما إذا كانتْ هذه الجميلة تُحبُّه، وتساءَلَت هيَ أيضاً متى سيتقدّمُ لِخطبَتِها.. وأرادَ في لحظَةٍ مِنَ اللّحظاتِ أن يُشعِلَ التّلفازَ لكنّهُ لَم يشأ أن يُخلّصَها من ذراعِهِ الّتي كانتْ تُطوّقُ جيدها.. فقد تمانعُ مرّةً أُخرى إذا ما همّ بالأمر.. وبقيَ الجهازُ مطفأً، وبَقيَتِ الذُبابةُ مُلتَصِقةً بالجِدار، ولا يعلمُ أحدٌ الآن فيما إذا كانتْ تِلكَ الذُبابَةُ تُراقِبُهُما أم أنّها مشغُولةٌ بشَيءٍ ما.. وعلى كُلّ حالٍ فالذُبابةُ لا يُمكنُ أن تكونَ مِن عائلَة حبيبَته، لذلكَ بإمكانهِ أن يفعلَ بِها ما يشاءُ دونَ خِشيَةِ شَيء..

وفي لحظة من لحظات الصّمت المستديم، اقتربَ منها وهَمسَ بشيءٍ لَم يستطعْ هوَ نفسهُ أن يتبيّنَه، وتواطأتِ الحبيبَةُ مُتسائلةً:

- "حقّاً؟"

وغمغَم مُتمّناً:

-"نعمْ"..

وضَحِكت الذُبابةُ ولم يسْمعَاها.. وقالَ مرّةً أُخرى:

- "الجوُّ حارٌّ.."

آنذاكَ فطِنت إلى حيلَته، فبادَرَتْ بشدّ منديلها ومدّ جلبابها تحتَ قَدَميْها، وأحسّ بالغَضب، لكنّهُ لم يُزَمجِر في وجهِها لأنهُ يعرفُ جيّداً حكمة شعبيّة مفادُها أنّ "الفأرَ

الغاضب مِنْ حظّ القطّ"[20]، وهذهِ أولُ مرّةٍ تزورُه فيها.. وعَليْهِ أن يتحلّى بِبَعضِ الصّبر، وأن "يَصبِر لِلذغِ النّحْل"[21].. وعندما وصَلَ تفكيرُهُ إلى النّحل تذكّر الذُبابةَ فالتَفتَ إليها وخمّنَ أنها لا بُدّ أن تكونَ قَد بزقَت الآن على الجِدار، وفكّر كيفَ لِكائنٍ أن يَبزِقَ وهو على تِلكَ الحال، أي كيفَ يُمكنُ للذُبابَةِ أن تَقضيَ حاجَتها دونَ أن تكونَ على سَطحٍ مُستَوٍ، واستمرّ في تفلسُفِه مُتسائلا عن السّبب الذي يجعلُ بزقَةَ الذُبابَةِ مُلتصِقةً أيضاً دونَ أن تسقُط.. وحتّى إذا سَقطَت فهل يُمكنُ أن تُصدرَ صوتاً مسموعاً كما يحصُلُ لديه عِندما يفعلُ عندما يكونُ وَحده!.. واغتبطَ عندما احتملَ أنهُ قد يكتشفُ نظريّةً ما كما فعل "نيوتـنْ".. هو سقطت عليه تُفّاحة وصاحبُنا قد تسقُط عليه بزقة.. لا يهمّ.. وفكّر أن الكثيرَ مِنَ الحقائق العلميّة لا تزالُ غائبةً عنهُ، وأنهُ سيقتني هذا الأسبُوع موسوعة علميّة مُتخصّصة في عاداتِ الحشرات.. وتنهّدَت حبيبتُهُ تحتَ طوقِه وقال دونَ وعي:

– "لا بُدّ أنّ للأمر علاقةٌ بالجاذبيّة"

وقالتْ:

– "أنا أيضا أتساءل عن الأمر في هذه اللحظة، هل لِعلاقتِنا أمرٌ بالجاذبيّة؟ أنا أيضاً أُحسُّ بنفس الانجِذابِ تُجاهَك.."

وأمسَكَ بمنديل رأسها مُحاولاً جَذبهُ بقُوة، وصاحتْ:

– "هلْ جُنِنت؟"

وعقّب صائحاً:

– "أُريدُ أن أطرُدها.. أعطِني منديلَك لأطرُدها"

---

[20] ثمة مثل مغربي شعبي يقول "الفار المقلّقْ من سعد القطّ".
[21] ثمة مثل مغربي شعبي يقول "اللي بغا العسل يصبر لِقرص النّحل"

وارتعبَت عندما رأت هيجانهُ المفاجئ وغير المفهوم،وما كادت تهُبُ واقفة حتى أمسكها بِيدها قائلا:

- "أرجوكِ، سامحيني.. فقطّ اجلسي، لَن أنزعَهُ مُجدّداً"

عادتْ إلى جِلسَتها والتفَتَ إلى الذُبابَةِ ثم شاهدَ أسنانها وهي تَضحكُ من خيْبَتِه.. استَندَ بِظهرِهِ إلى الجِدار الأصفر في خيبة، وفكّر أنهُ سوفَ يقتُلُ الذُبابةَ عندما تَنصَرفُ حبيبتُه.. لوْ فقط أنّ الأمورَ سارَت كما اشْتهى لنزعَ منديل حبيبَته ولطارَد الذُبابةَ داخل الشُقة، والقصةُ تقتضي أن تهزمهُ الذُبابةُ فينزعُ قميصهُ ليُطاردها به، ثُمّ سرواله.. إلى أن يَصِلَ إلى جلبابها.. لكنّ لا شيْء حدث من كل هذا.. وفي لحظةِ من اللحظاتِ انسلّت حبيبتُه من جانبه وقالت وهيَ تلقي نظرةً على ساعَتِها:

- "سأذهبُ الآن.. تأخّرت!.."

سبَقها إلى الباب ثُم فتَحه وخرجَت..

عِندما عادَ إلى الذُبابَة مُسرعا لم يجِدها، إذ كانت قد غادرَت عبر النّافِذة، وترَكَت أمامهُ سلسلةً من البزقات كنُقط مستقيميّة على الحائط.. تأمّلها جيّدا وحاولَ أن يشُمّها، وتساءَل فيما إذا كانت مُصابةً بالإسهال.. ولم يمنح نفسهُ الوقت للتفكير في الإجابة.. بل غادرَ الشُقّة مُتجها إلى مكتَبةِ الحيّ ليبحثَ عن موسوعة ليفهم عادات الحشرات أكثر...

متى تفوز الريال؟

البيتُ الطُّوبيُّ الصغيرُ القابع عند مدخَل القرية ليْسَ بيتَ حارس كما يُمكنُ أن يُعتَقد لأوّل وهلة، إذ إن القرية تحرسُ نفسها بأبنائها، وعموما، فالله هو حارسُ كلّ شيء.. سُبحانهُ وتعالى.. ومع ذلك، فعلى العطار (صاحب البيت الطُّوبي نفسه) أيضاً حراسة سلعته، ولا بأس أن يستعين في ذلك بذاك الكلب الأجرَب الهزيل..

باعَ في البداية الشّبابَ السجائر، والصّبيانَ الحلوى، ثمّ أضافَ بعدها الأقراط والدّمالج للنساء، فدارَت العجلَة.. بيد أن شائعة قوية سرعانَ ما راجت لتُعرقل إيقاع الحركة، ومُفادها أن مِثقَبَ الرجُل تعدّى الآذانَ إلى أماكنَ أُخرى..

وذاتَ صباح، أوحَت للعطّار صناديقُ كوكاكولا التي ألِفَ القرويّون اقتِعادَها أمام حانوته بإنشاء مقهى صغيرة، جعلته يستغني عن الحليّ، ليعمد –بعد رشوة مُقدّم القرية– إلى توسيع جنبات المحل.. وخلالَ أيام قليلة تكدّسَ جيشٌ عرمرمٌ من البدو أمامَ تلفاز كبير داخل المحل، مُنافسين المعلّق الريّاضي في سرد أسماء اللّاعبين "النّصارى".. وبسُرعة غريبة أيضا، نشأت صراعات خفيّةٌ بين الرجال، بسبَب المباريات الّتي جلبَها ذاكَ الصحنُ المقعّرُ الذي ثبّتهُ العطّار فوقَ سطح المقهى.. تلكَ الصّراعات الّتي ما لبثَتْ أن شطَرت الدّوار شطرين مُتباينيْن: شطر بارصاوي وآخر ريالي.. وخلال أيام معدودة تغيّر كل شيء في الدوار، بدءاً بالخياطُ الذي اقتصر على جلب ثوبين اثنين فقطّ لخياطة الجلابيب: الأبيض والأحمر المخطّط، أما الحقول فقد تخلى أصحابُها عمّا كانوا يزرعون مُبقين إمّا اللّفت، أو الطماطم والباذنجان.. وأمّا الصغار، فقد أخلوا الكُتّاب وتفرّغوا لمحاكاة لاعبي الفريقين في الحركات وتسريحات الشعر...

بدا أنّ "حمّودة" صارَ شخصا آخر وكأنّ به مسّ.. إذ لم يعد له حديث له إلا عن البارصا.. وكثيراً ما كان يقطعُ انتباه المتفرجين ليستعرض مناقب فريقه مُشيدا بذكاء خطط مدرّبيه، أو يلوح بيده في اتجاه المعسكر الريالي مهدّدا.. وكم كان يبدو مزهوا بفريقه الأثير كُلّما سكبَ في بطنه قناني كوكاكولا على حساب خصومه، بفضل رهاناته الّتي قلّما خابَت.. وقالَت نعيمة الحوْلاء:

– "تفو، على رجال الدرك أن يكسروا ذاكَ الصّحن الملعون على رأس العطّار حتّى يعُود الرجالُ إلى رُشدهم".

وأجابتها ريحانة زوجة حمُّودة:

– "اخرسي يا الحمقاء.. أنت لا تعلمين أنّ المقهى أراحَت الآن رجال الدرك – أنفُسَهُم– من تعب التّنقل إلى الفيلاج لمتابعة مُباريات الكرة!"

وفي حضن ريحانة، فرَكَ فقيهُ القرية لحيته ذات مساء قائلا:

– "إذا سارَت البارصا على هذا المنوال فسوف نلتقي كثيراً"..

وأجابتهُ وهي تنزع المنديل عن شعرها الطّويل:

– "بسُرعة قبل أن تنتهي المبارة فيعود حمّودة!"..

هكذا صارَ الفقيه ينتظرُ مباريات البارصا أكثر من آذان الصلوات، بل صارَ بارصاوياً أكثر من حمودة نفسه، إذ ما إن كان يتأكّد من وجود الرجُلِ بالمقهى حتّى يقفز عبر السُور إلى بيته.. وكثيراً ما همس في داخله كلّما تأخر الموعد :"أرِحنا بِها يا العطار!"..

انتهى الدّوري الإسباني، وقلّت المباريات، ولم تجد ريحانة من حيلة للقاء الفقيه غير استدعائه لعلاج أختها الأرملة، التي كانت تُداهمُها نوبات صرع متتالية.. وما إن رفعَ الفقيه صوته بالقرآن أمامَ المِمسُوسَةِ حتّى نطق صوت جنيّ داخل جسدها قائلاً:

– "الله يمسخك، أنت فقيه يا أنت؟ ألم تُصلِّ أوّل أمس العصر بالنّاس دون وضوء؟ تكلّم أيُها الزّنديق؟"..

ووضع الحاضرون أصابعهم في أفواههم مندهشين، فلم يملك الفقيه غير رفع صوته أكثر حتّى يغطّي صوت الجنّي الذي كان يأتي فاضحاً قوياً رغم ذلك ومنكراً صوت الفقيه:

–" ألم تضاجع فلانة زوجة فلان قُرب البئر؟ ألم تتحرش بابن فلان في الكُتّاب؟ ألم تغتنم غياب حمودة لتضاجع زوجته بهذا البيت؟..."

وهكذا، وعوض أن يخرج الجني من جسد أخت ريحانة ليلتئذ، خرج الفقيه من منزل حمّودة وقد تبعثَرت عصيُّ أهل الدُوار على ظهره، أمّا ريحانة، فلا أحد علم بمصيرها بعد الواقعة.. وقد قيل إنّها ألقَت بجسدها في الوادي الكبير..

بعد شُهور، كان حمودة يجلسُ صامتاً منكسراً على أحد صناديق كوكاكولا وقد تحلقَ حَوله بالمقهى بعضُ متطرّفي فريق البارصا، محاولين —في الآن نفسه– تلطيف جوّ الكآبة وتغطية ندوب الفضيحة التي تصدّعَت لها جبالُ الدُوار قبل أشهر.. واندفعَ أحدهم وهو يثبّتُ سيجارة بين شفتي حمّودة المرتجفتين مُتضاحكاً:

– اشربْ لِك كاكُولا على حْسابي آحمُّودة، ستتوّجُ البارصا الليلة، وستُنسيك كل ما حدث..

وخلفَ الأكمة، وبعيداً عن أنظار القرويّين، كانَ أحدُ الرُعاة مُتمدّدا جَنْبَ زوجَة أحد ريّاليّي القرية في اطمئنان، وعندما استدار جِهَتَها كوّشَ فيها بيديْه ورجليْه كإخطبوط، ثمّ همسَ في أذنها:

– متى يُحالِفُ الرّيالَ الحظُّ أيضاً، فَيعفُوَ اللهُ عنّا من الخلاء والبَرد!..

اليَـد

فجأة، وببطش غريب، تمتدُ اليدُ الهلاميةُ لِتَنزعَ عنّي أثوابي فأصير عارياً كما خرجتُ إلى هذه الدُنيا أوّل مرة. لا شيء الآن، غير السماء والريح والغُبار. وتمتدُّ اليد الكبيرة الغريبة لتهدم مدرستي الصغيرة القابعة بأعلى الجبل وتُخرسَ الأفواه الصغيرة الجافة من الجوع والبرد والصادحة بأناشيد الطفولة. الريح والغبار والسماء البعيدة البعيـدة.. وأنا في زاوية من زوايا البيت، أحاول أن أتحرّك، أن أصيح بشيء ما، لكنّ الغبار يخترق حلقي فأبكي.

المطر. الأشجار وأكمام معاطفنا تواري أناملنا الصغيرة .الصغيراتُ يلعَبْن الحجلة، ونحنُ نتمادى في براءتنا، ونصطنع عفوية بسيطة لنوهمهنّ بانهماكنا في اللعب وتركيزنا على الكرة الصغيرة التي تُطاردها أقدامنا الحافية على الأرض الموحِلة..

ولا شيء،

لا شيء.. غير المطر والأشجار الكبيرة.

أبي.. أبي يحملُني على كتفيه لأتبيّن ألوان قوس قُزح.

أبي! إنني أراه، أرى ألوانه، هل تراهُ أنتَ أيضاً؟..

نعم أراه.

أبي، جدّتي تقول إنهُ "عُرسُ الذّيب".. أين الذّئب يا أبي؟..

ويضحكُ حتى يسعل، ثمّ يُنزلُني من على كتفيه قائلاً:

- "لقد كبرتَ وصِرتَ أثقل من ذي قبل، ستُسقِطُني إن استمرَرت في حملك"

وتُعقّبُ أمّي التي كانت تعجنُ الخُبز:

– "تعالَ يا بُنيّ! سأحملُك عندما أنهي العجين، لن أحسَّ ثقلك أيُها الشيطان الصّغير"..

أطوفُ الأزقّة والدّروب الضيقة، لا شيء يجعلُني أهتدي للأماكن غير قدميّ اللتين تحملان جسدي المريض على سبيلالألفة. وعندما أتكوّمُ حول نفسي بإحدى أركان البيت أسحبُ من حقيبة قديمة صورتي وأنا بين عشرات الوجوه الصغيرة بقسم الرابع ابتدائي. وخلف الرؤوس تنتصبُ اليد العملاقةُ مُفرِدةً أصابعها الكبيرة.

بعد سنوات بقيَ رأسي يتيما وسْطَ الصُورة ولا شيء خلفي غير اليد. أغمضتُ عينيَّ.. فغابَت السماءُ،

والأشجارُ.. وقوس قُزح..

وغِبتُ أنا.

مهمّة

أدخلُ المقهى. يدخُلان.. أجلسُ فيَجلسان، أقوم إلى النّادل لكنّهما لا يقُومان.. أنا أهتمُّ بهما وهُما لا يهتمّان.. إلّا ببعضهِما..

أنا (خ. ش) مُتقاعدٌ بسيطٌ أخافُ الأمراضَ وأحلُم بالجنّة وأحمل في جيبِ سُترتي بطاقة برقم:E131749..

أجلسُ الآن إلى المنضدة المستديرة ويقفُ عليّ النّادلُ فأقولُ:

- "الجوُّ حارٌ"

ويُجيبُني:

- "بسرعة، ماذا ستشرب؟"

أعودُ إليّ لأراقبهُما في حذَر. هو: لا أعرفه. هي: أيضا لا أعرفُها.. لا أعرفُ أحداً هُنا.. قَد لا أعرفُ نفسي مُستقبلاً أيضاً..

جلستُهما توحي أنّها الأولى، لكن يبدو أنّهما جارَان قَديمان لبِعضهما.. ربما لَم يُفاتِحها إلا قبل أسبوع فقطّ.. باستِطاعَتي أنْ أُقسِمَ أنّهُما لميهتمّا ببعضهما إلاَ قبْلَ أسبوعٍ.. أسبوع بِلا زيادةٍ أو نُقصان.. الطّريقةُ الأنيقةُ التي يُحرّكُ بِها يديهِ تفضح ذلك، وَهوَ يشرحُ أشياءَ تافِهةً. نعم، تافِهة جداً، وأُراهِنُ على ذَلِك.. كأنْ يشرحَ لَها مثلاً الفرْقَ بينَ الجامِعةِ والأقسامِ التّحضيريّة وآفاقِ كُلٍّ مِنهُما.. دونَ أنْ يعيَ ما يقولُه، لأنّهُ يتعمّدُ الحديثَ فقط ليتأمّلَ عيْنَيها.. تستَمعُ إلى كَلامِهِ موهِمةً إياهُ بالانتِباهِ، وهيَ تتأمّلُ صلَعَهُ الجُزئي دونَ أن يفوتَها عقدُ مُقارنةٍ سريعة بينَهُ وبينَ حبيبِها السّابق الّذي كانَ شعرُهُ كثيفاً وناعِماً.. هُوَ يتحدّثُ بِتكلُّفٍ،

وهِيَ ترشُفُ من العَصيرِ بتأفُّفٍ.. تضع أمَامَها دفْتراً.. أغلبُ الظنّ أنّهُ دَفترُ مادّةِ الفِيزياء.. حتّى تُوهِمَهُ بالدّافعِ القاهِرِ لخروجِها لِلُقياهُ ..الامتِحانات على الأبوابِ.. والفيزيكِ "صْعيبْ"،لكن الأصعبُ هُوَ كيفَ سيسْتَدرِجُها إلى منزِله.. وفجأةً يُطبِقُ صمتٌ رهيب.. تنتَهي المواضيعُ المسموحُ بها عادةً في اللّقاءِ الأول.. ويُصبحُ بإمكانهِما أن يَستَمِعا إلى كلماتِ الأُغنيةِ التّي تُردّدُ جدران المقهى صَدَاها.. في العادَةِ يُدخّنُ.. شفتاهُ تفضحَانِه.. لكن ليسَ بإمكانِهِ الآنَ أن يُدخّن.. عليهِ أن يبدوَ الآنَ أنيقاً وكامِلاً.. تمنّتْ أن يبدوَ مُدخّناً حتّى تطرُدَ الصّمت بعِباراتٍ لا مَناصَ مِنها، تُحذِرُ من خلالِها من أخطارِ التّدخين، وكيفَ ألا أحدَ في عائِلتها المصونة يُدخّن.. باستِثناءِ أخيها حميد الذي يُقيمُ بِبلجيكا (بلجيكا هي الدّاعي هُنا لذكرِهِ وليسَ التدخين طبعاً).. أخيراً عنّ لها أنْ تقطعَ الصّمتَ المسْتطيل، فتُعلّقُ على الأغنيةِ:

- " لم تعُد أغاني تامر تُعجبُني !"

تنتَصِبُ صورةَ تامر حُسني أمامَ عينيهِ، فيشعُرُ بغيرةٍ مُفاجئةٍ وحِقدٍ كبيرٍ إزاءَهُ، فيُعدّلُ جلستهُ قائلاً:

- "أنا لا أُنصتُ إلى الأغاني إطلاقاً، أفضّلُ معزوفات بتهوفن، وموزارت وفانجيليز وزامفير.."

يحفظُ أسماءهُم جيداً ولا يَعرفُ سيمفونيةً واحدة.. هيَ تلميذةٌ تدرُسُ بالصفّ الثانوي، أجزم بذلك.. أنا موظفٌ قديم ..وإن سألتهُ عن سيمفونيةٍ ما، فمِنَ المؤكّدِ أنّهُ سيُضلّلُها.. وقدْ يستشهِدُ بمقولاتٍ حَرفيةٍ لأفلاطون ودموقليس وَهُما يُثنيان على أغاني موزارْت وياني وفريد الأطرش وحتّى الزهوانية، لن توعزَهُ الكلمات.. تسقُطُ قطرةُ عصيرٍ على مِعْطَفِها فيُبادِرُ بتقديم ورقة كلنكس على طريقةِ شُكري سَرحان أو إريتيك رُوشان.. تشكُره.. وتنتهزُ الفُرصةَ لتنزعَ عنها المِعطفَ حتّى يتحلّبَ ريقُه.. هُوَ لا يَعرِفُ الفيزيك ولا بتهوفن ولا سرحان ثم إن اصلَه من بوشان.. هُوَ يُريدُها فوقَ سريره فقَط، وهي تلعَنُ بروتوكالات اللقاءِ الأوّلِ التي تُقيّدُ

حرَكاتِه وسَكَناته.. تَعرِفُ ما يجولُ في ذِهنِه وتتمنّى أن يقولَ تِلكَ الأشياء.. هيَ لا تُحبُّ الفيزيك ولا تُريدُ أن تعرِفَ موزارت.. هيَ تُريدُ أشياءَ أُخرى.. يعودُ الصّمتُ من جَديد ثمَّ يرحلُ.. والدّفترُ يلعَنُ صاحِبنا ويتمنّى أن يقولَ لها هيّا بنا إلى المنزل.. كذلِكَ النّادِلُ يتمنّى أن يُغادِرا المقهى حتّى يُفسِحا المجالَ لزبونٍ كريم وجوَادٍ.. شهِقَ.. زفرَ.. حكَّ رأسهُ.. ابتسمَ .. قطّبَ.. أخيراً نظرَ إلى النّافِذةِ وهمَس:

- "لماذا لا تذهبين معي يا مُنى إلى البيت؟"

جَمعتْ حقيبَتها قائلةً:

- "هذا ما كنتُ أخشاه.. مع السلامة!"

ترحلُ ويبْقى وحيداً.. ينفَحُ النّادِلَ ثمنَ القهوةِ والعصير ويَخرجُ في بُطءٍ..

ستُغْلِقُ هاتِفَها لمِدّةِ ثلاثَةِ أيّامٍ.. ستتّصلُ به قائلةً كأنّ شيئاً لمْ يَكُن:

- "أهلاً الزّين، هل أنتَ في المنزل؟"

- " نَعَم"

- "أُترك البابَ مواربا حبيبي، أنا في طريقي إليْك"[22]

[22] "يالله آسيدي، ما تبقى غا على خاطرك!" (عبد السميع بنصابر)

العرس

الغيّاطُ[23] يَصدحُ عالياً بنغَماته القويّة، وأنا ألتَهِمُ الخُبزَ الأبيضَ المحشوّ بِفَخذِ دجاج رُوميّ داخِلَ الخيمة الكبيرة.. كانتْ أُمّي قَد جلَبتهُ إليّ من مائدة النّساء المدعوّات بَعدما حذّرَتني مِن الاقترابِ من "النّاس" وأردفَت تهديدَها بِقَرصَةٍ متينة في فَخذي.. آكُلُ الخُبز والدّجاج وقد تسرّبت ملُوحة دُموعي إلى حلقي الجافّ ..

مسحتُ يديَّ المدسّمتين في ملابسي ثُمّ انسَلَلتُ من تحت الخْزانة.. ووسْطَ العتمة أبصرتُ طيفين صغيرين يتحرّكان.. وعندما دنوتُ من السُّور الطوبيّ ألفَيتُ أختي تُلاعِبُ طفلَة أكبر منها فَجلستُ قُربهُما.. قُلتُ بصَوت مبحوح:

– هذه أُختي !

قالت الطّفلة:

– إنها أختي أيضاً وضمّتها إليها صائحة:

–أمّي.. يُريدُ أن يحرمنا اللعب!

قالت أختي:

– لا تخافي، سنلعب جميعاً.. إنهُ لطيف!

مرّت لحظاتُ عبَث تحتَ الظُلمة أفسَدتها أختي بمُراقبَتها.. كنتُ ألمسُ يدَ الطّفلة وأقبّلُها في الخفاء، فأشمُ رائحة الحنّاء ثُمّ تسري في كياني رَعشةٌ لذيذة ..

[23] الغياط: العازف على الناي.

هَمسَتْ في أذني:

- أختُك ستُخبرُ أمّي! كُن حَذراً..

تحدّثنا عن الغُولة والجنّ وخافَت أختي ثُمّ بَكَتْ.. تماديتُ في إخافَتها فهَرولَت إلى الخِزانة لا تلوي على شيء..

قُلتُ للطّفلة مُتحمّساً وأنا أشيرُ إلى الزُّقاق المظلم:

- هيّا لنلعبَ لُعبَة "العريس والعرُوس!"

سَبقتني إلى الزُّقاق، فقُمتُ إلى الخيمة لأطمئنّ إلى انشِغال الجميعِ بالعُرس الّذي بدأَ صخَبهُ يخْفت. هُناك تلقّفَتني أُمّي من ذراعي وقادَتني إلى العَربة صُحبَة أُختي وهِيَ تَهمِس: -أسْرعا! عليْنا أن نعُودَ قَبل أن يستَيْقِظَ أبُوكُما..

في الطّريق إلى قريتِنا المجاورة، تذكّرتُ رائحة الحِنّاء وضفائرَ الطّفلة، وتساءلتُ فيما إذا كانَتْ لا تزالُ تنتظِرُني بالزُّقاق المظلم، فندّتْ عنّي شهقَةٌ طويلة أنكَرتها أصوات حوافِر الحمار وعَجَلَتا العَرَبة...

النّعل وسعادة القائد الذي لم يكن سعيداً

كانا اثنيْن (المحجوب وبوجمعة)، ولَمَ يكُن ثالثهما كلب أو قطّ، أو أرنَبٌ حتّى، رغمَ أنّهُما خرجا من أحد الكُهوف.. فعلى الإنسان أن يخرج دائماً من الكهف أو الكوخ صُحبَةَ كلب أو أي حيوان آخر ما، كما تقولُ حكاية قديمة ذُكِرَت في القُرآن، وقرأها الطُّلبة مرارا ليالي الخميس بالمساجد، وفي مناسبات كثيرة.. وقدْ صحَّتْ في أذهان الكُفّار عندما بثّتِ التّلفزَةُ قبل شُهور برنامجاً عثَر إثرَهُ علماء من النّصارى –أنفسهم- على الكهف الّذي ذُكرَ في المِصحف الشّريف.. وكانَ ذلك بإحدى قرى فلسطين، ورُبّما الأردن.. من يذكُر!

تلكُم طبعاً قصّة غابرة وقديمة جداً، قصّة الّذين خرجوا من الكهف الّذي يوجدُ الآن بفلسطين، وربّما الأردن.. أمّا قصّة الاثنيْن اللّذيْن خرجا ذاكَ المساء من أحد كهوف حيّ صفيحيّ بمدينة الدّاخلة فهي مُختلفَةٌ شيء ما، ولم تنقُل التّلفَزة قطُّ صوراً لكهفهم، إلا في مناسبة وحيدَة ربّما، لا يذكُرها المحجوبُ الآن بالتّحديد، لكنّها كانتْ قد تزامَنت غالبا مع موعد من مواعيد الانتخابات.. ثمّ إنّ المحجوب لا تَهمُّه الآن قصة كهفِ الأردن أو فلسطين أو حتّى جزر القُمر.. لأنهُ لا يعرفُها أصلا، ولم يسبق أن قرأها في المِصحف، فهُوَ لا يعرفُ القراءة والكتابة، ولم يسبق أن دخل المدرسة إلا ليُعيد الكُرات الطائشة أثناء اللعب خارجَ أسوارها ..

كانَ الليلُ قد ضَرب بأطنابِه في فضاء الحيّ الصّفيحي الكبير، وكان المحجوب وبوجمعة يمشيان على الطّريق المِتربَة صامتيْن، فالقضيّة خطيرة تستدعي السرّيةَ والحذر التّام، لذلك فقدْ تغامزَ الأخَوانِ بالكوخ قبل أنْ يخرُجا تباعاً.. والحاصِلُ في الحكايَة أنّ بوجمعة كانْ قَد أضاعَ نعلهُ البلاستيكيّ على الشّاطئ مساء يومئذ، عندما تركها مع ملابسه تحت الصُّخور وهبَط مع أخيه المحجوب ليسبحا.. ولم يُسْفِر نِصفُ يوم من البحث المستمرّ والدّقيق عن أيّ

شيء.. لذلكَ اقترحَ المحجوب، الأكبرُ سنّا، أن يغنما أيّ نعل بلاستيكيّ من عتبَة المسجد، سيما أنّ عبادَ الله يصلون هذه الأيام التّراويح، وهذا يُتيحُ إمكانيّة اختيار النّعل على مهل.. لأنّ عدَد المصلّين بالمسجد يزدادُ خلالَ رمضان..

إنّ الإنسان خُلق هلوعا وعارياً أيضاً، هكذا تلفظه أمه اليوم الأوّل، نعم إنّهُ كلام أسيادنا الأوائل الّذين لم يتركوا لهؤلاء ما يقولون، يخرج ابن آدم أو ابن أي أحد آخر من سُكّان الأكواخ الصّفيحية عارياً تماما، ومع مرور الزمن يلبسُ الثّيابَ وينتعل شيئا ما، وعليه أن يحتفظ بما يلبس فوق ظهره ورجله.. هكذا يقول أبو المحجوب وبوجمعة ويستطرد: "إذا سرقوا حذاءَك اليوم، فقد ينزعون سروالكَ في الغد، ولا أحد يعلم ما يُمكن أن يحصل لك في اليوم الثالث..".. لذلك على بوجمعة الآن ألا يعودَ إلى الكوخ حافيَ القدمين.. فمن المخجل جداً أن تتهامسَ نساء الحي قائلات مثلا "آويلي ياخْتي، شفتي ولد فلان أو فرتلانة مسكين، لا يجد ما يلبس حتّى في رجله..".. إنّ ألسن النّاس طويلة، وأبوهما لا يحتمل أن يُشار إليه بالأصابع ولو بالخير، فللنّاس ألسنٌ طويلة يتحدثون بها، وأصابع يُشيرون بها، وأعين يُقوّسُون بها، ومؤخرات يجلسون بها أمام عتبات المنازل لرؤية الغادي والرائح، ولا يُغادرون صغيرة ولا كبيرة ولا قاصرة ولا عجوز إلا أحصوها.. هكذا خلقَ اللهُ أهل الأكواخ، كما شاءَ أن يخلق في المدينة أناسا لا يهتمون لأمور الآخرين، فهم درسوا –سهّل الله عليهم- واشتغلوا واشتغل أبناؤهم ونساؤهم أيضا.. رغم أنّ أبا المحجوب وبوجمعة لا يتّفق مع هذه القضيّة الأخيرة إطلاقاً.. فهو يكره كلّ النّساء اللائي يتوظّفْن.. ويكره بالذّات ما يلبسن.. ويقولُ إنّهن يتشبّهن بالرجال والعياذ بالله مرة أخرى، فلا خيْر في امرأة تلبسُ سروالاً طويلاً وحذاءً، الحذاء صنعَهُ الأجدادُ من أجل الرجال فقط، أي نعم، هم الّذين يلبسونه، وهم الّذين تخنَزُ أقدامهم –أعزكم الله-، وحاشا أن تخنز قدم امرأة والعياذ بالله دائماً.. وعموماً، فما يلبسُ المرء في قدمه ينبئ بشخصيته.. وهذا الأمرُ يعرفه ماسحو الأحذية أكثر من غيرهم، إذ يستطيعون تمييز النّاس فقط من خلال ما ينتعلون، تماما كما يُميّز الحلاقون الناس بتسريحات الشّعر أو

مقدار الصّلع.. وهكذا تستطيع أن تحكم على المرء أيضاً انطلاقا من مظهره السُفلي، فالموظفات يلبسْن الحذاء مثل الرجال، والنّساء الأصيلاتُ يلبسن الصّندالة أو الشّربيل، وأبناء الحيّ الصفيحيّ يلبسون الصنادِلَ البلاستيكية، رغم أن أبناء المدينة ينتعلونها فقط لدخول مراحيض منازلهم الأنيقة، ولا بأس في أن يلبس الفقراء تلكالصنادل لأنّ أكواخهم تُشبه مراحيض عموميّة.. وفي الحقيقة، إن هؤلاء المكجّفين[24] من النّاس لا يستحقون حتّى تلك الصّنادل البلاستيكيّة، فها هو بوجمعة ذهب إلى البحر وأضاعها ثم لم يعُد حتّى بخُفّي حُنين، ولو أنه عادَ بهما لكانَ قد لبسَهُما وترك صنادل المصلّين.. ومعَ ذلكَ على المرء أن "يُعدّيَ بالصّندالة حتّى يأتيَ اللهُ بالحذاء".. هكذا تقولُ الكتُب القديمة.. وفوق ذلك، على الإنسان أن يُنظّفَ عقله قبلَ حذائه (عندما يأتي به الله).. فثمّة قرويّون يلبسون أحذية (أتى بها أهلهم من الخارج) لكنّهم يطؤون بها بعر البغال والحمير وبني آدم أحيانا، فرُبّ صندالة نظيفة خير من ألف حذاء خانز من الداخل أو الخارج.. وعلى الإنسان أن يكون حاسما دائما، إمّا أن يكونَ نظيف العقل والحذاء أو يكون دابّة تمشي على الأرض.. وعلى المحجوب أيضا أن يكون حاسماً الآن وقد بلغَ المسجد..

كانَ المصلّون لا يزالون يركعون ويسجدون عندما تسلّلَ الأخوان إلى المسجد، وطفق بوجمعة يجربّ بعضَ الصّنادل، ثمّ همس لأخيه المحجوب قائلاً: "انظر، هل يُناسبُ هذا النّعلُ لون السّروال؟".. لكنّ المحجوب كان ساهيا، لأنّ الشيطانَ وسوسَ له أن يجمعَ كُلّ الصّنادل الموجودة على عتبة المسجد، وتساءَل المحجوب في نفسه كيف للشيطان أن يوسوسَ لهُ رغم أنّه داخل المسجد.. والشياطين –كما سمع في مناسبة ما– لا تدخُلُ المساجد، لكنّهُ فكّرَ أنهُ يمكن أن يكون شيطانا، فالشّيطان لا يكون له قرنان وذيل طويل دائما كما تخيّلَ دائماً.. لكنّ التّفكير في هذه الأمور يتطلبُ وقتا، والوقتُ الآن لا يسمح إلا بجمع صنادل المسلمين والتّسلُل بها خارج المسجد..

---

[24] البؤساء

لم يكن المحجوب يُفكّرُ في بيع الصّنادل في السويقة طبعا، فقد دأب على بيع الصّنادل لبائع المثلجات فقط وهذا ما يُريد الآن، وقد تحلّب ريقه عندما تصوّر كم من الممكن من المثلجات أن يلتهم بهذه الصّنادل.. وفجأة طمعَ وكبرت كرشُه، وكبير الكرش غالبا ما تتفرقَعُ له، لكنّه لم يسمع بكبير كرش تفرقعت له، فالقنينات الغازية هي وحدها الّتي تتفرقَع في هذا الحيّ الصّفيحيّ، فتنشبُ النيران في الأكواخ وتجري النساء في اتجاهات مختلفة... وهو ليس غبيا بالقدر الذي يجعله يخبئ الصّنادل في كرشه، إذ سارع بجلب خيشة كبيرة وراحَ يملؤها بها...

لم يكُن بائع المثلجات من العاجزين في اليوم الموالي بعدما رأى الخيشة الحُبلى بالصّنادل، إذ أنّ خبر ضياعها من المصلّين كان قد سبقها إلى علمه.. ودرهم من الجاوي كافية لتُبخّرُ الحيَّ بأكمله كما يقولون، رغم أنّ المرء لا يشمّ في هذا الحيّ إلا رائحة بول وغائط سُكّانه.. واتّصَل بالمقدّم فوراً واعتقل المخزن الأخويْن واقتادهُما إلى المخفَر..

أمامَ سعادَة القايد (الّذي لم يُكن سعيداً صباحئذ) صاحَ المحجوب متوسّلا في فزع:

"أنا مْزاوك لِك فْ البزيزيلَة[25] أطلق سراحي، لن أعيد الفعلة مرّةً أُخرى"..

وأمام باب المخفر، كان الأبُ يقفُ قلقاً منتظراً ما سيُسفرُ عنه الأمر، عندما خرج المخزني "علال" قائلا بكل أسف، أنّ إطلاق سراح الولديْن صار الآنَ مُستحيلاً، إذ أنّ تُهمة أُخرى انضافَتْ إلى السّرقة وهي "قلّة الأدب والتجرُؤ على ذكر بزولة (ثدي) أمّ سعادة القايْد" وهكذا باتَ من المستحيل التوسّط في الأمر، فلو أنّ ابنه ذكرَ على الأقلّ بزولة أمّ المقدّم أو الشيخ أو الخليفة.. لكانَ الأمرُ أهوَن.. ثمّ لماذا لم يذكر هذا المكجّفُ بزّولة أمّه الّتي بعرتهُ ويترك أمّ سعادة القايد (الّذي لم يكُن سعيداً) في التّيقار؟!..

[25] دعاء للتوسُّل بمكانة أمّ المُوسَّل إليه.. و "البزيزيلة" تصغير لكلمة "البزّولة" أي الثدي، و هنا تعني ثدي أمه التي رضع منها..

الجُرذان

الجُرذُ السّمينُ الذي خرجَ راكضاً من الكوخ الصفيحي الضيّق ذاكَ المساء، لم يكُن مُطارداً بِيَد مكنسَة أو فردَة نعل مُسدّدة، بل خرجَ منها هرباً من رائحة خنزِها مُفضّلاً الاختفاء داخلَ أقرب بالوعة..

كان الوقتُ غروباً، وَكُنتُ أشَربُ الشّاي بالخُبز المزيَّت فارداً رجليَّ قُربَ أمّي وأنا أرقُب ذَيل الجُرذ إلى أن أختفى داخل البالُوعة، عندما تعالَت فجأةً أصوات قويَّةٌ من الخارج، تبيّنّا من بينِها كلمة "النّار".. تبادَلتُ النّظَر مع أمّي وقَد أيقَنتُ بِمَحض العادَة أن ثمّة سافِلَةً انشغلَت –مرة أخرى– بشيء ما فشبَّت النارُ في كوخها..

في لَمح البَصَر، كان السَّكان قد خرجوا مهرولين من الأكواخ، ليسَ هرباً من خنزها كما فعل الجُرذ، بل لأن النّيرانَ راحَت تلتَهِمُ الخشَب والأثواب الّتي بُنيَت منها. رمَيتُ بالكأسِ أمامي، وهرعَت أمّي إلى داخل الكوخ تُخرِجُ الأثاث قبلَ أن يَصِلَنا زحفُ النّيران.. أمّا أبي فقَدْ خرجَ من محلّ الحلاقة راكضاً ولما يُتمّ حلقَ ذِقنَ زبُون خرجَ هو أيضاً بِوَجهه الّذي كانَ لا يَزالُ مُصَوْبَناً ليَقصِدَ كوخَهُ حتّى يُنقِذَ ما يُمكنُ إنقاذَه..

لا أُنكِرُ أنّ إحساساً بالفرَح والنّشاط كانَ يغمُرنا، ونحنُ صغار، عندما كانتتنشُبُ النّيرانُ في الأكواخ.. فنستَمتِعُ إذّاكَ بمُتابَعة الرجالِ والنّساءِ وهم يركضون حُفاة حاملين الأغطية وأجهزة المطبخ وغيرها إلى الخلاء بعيداً عن النّيران.. وقالَ أحدُ أبناء المدينة الذين كانوا يجدون في حالة الاستنفار تلك مُناسَبة ممتازة للاحتيال:

– أعطني التّلفازَ يا الشّريفة لأساعِدَك..

وعندما ناولَتهُ التلفاز مُحاولَة إبعادَه عن الكوخ وعادَتْ لتُخرج بقيّة الأثاث، كانَ الشابُّ قَد أسرَع بالجهازإلى بائعَ خُردة بالمدينة..

أما أبي وأمّي فقد قاما بإخراج كُل شيء من الكوخ تقريباً، وحتّى يُبقيَ الدجاج والخرفانَ الّتي كُنّا نُربّيها تلك الأيام، عمَد أبي إلى إدخال الدّجاج حيّاً داخل الثلاجة وربط رجل النعجة العجوز بخيط مأخذ تيّار الثلّاجة، حتى لا يتبعها بقية الخراف كالعادة.. الأمرُ الذي غابَ عن ذهني ذات لحظة جوع في الخلاء المظلم، عندما فتحتُ الثلاجَة وطارَ الدّجاج ثم تفرّقَ هُناك، وفزعَت النعجةُ وهربَت قاطعَة خيط مأخذ التيّار فتبعتْها الخراف.. أمّا أنا فقد هروَلتُ بسُرعة إلى البحر حيثُ قضيتُ ليلَتي بينَ الصخور خِشيَةَ أن يُمسِكَني أبي..

في الصّباح، كانَ كُلّ شيء ساكنًا بعدما خمَدَت النيران.. طفق بعضُ السُكان يُحصي خسائرَه، والبعضُ الآخر يتحدّثُ مشدوها عن الكارثة التي حصلَت ليلة أمس.. أمّا أبي فَبدا أنهُ نسِيَ ما اقترفتُ.. لأنّهُ كان مُنشغلاً رُفقة أمّي بحالة عمّي الصحية الذي لم تكُن ليلَته أفضَل من ليْلَتي.. إذ عندما علمَ ليلاً بنشوب النيران في الأكواخ، كان قد خرجَ لتوّه من إحدى ورشات البناء التي كان يشتغلُ فيها بالمدينة.. ومن سوء حظّه أنّ عطباً حصل للعجلة الخلفيّة لِدراجتِه الهوائية، فعمد —على عادة القرويّين آنذَاك– إلى إحاطة إطار العجلَة بخرطوم "الكومبريسور" السّميك عِوضَ أنبوب غرفة الهواء، ثمّ ربطَ طَرفيه بسلك.. وبينما هُو يضغطُ على الدوّاسَتيْن بقوّة ليصل بسُرعة، انفتحَ أحدُ طرفي خرطوم العجلَة الخلفية، وراح الخُرطوم مع كُل ضغطة يخبطُه على ظهره (صاااطْ).. وتزامنَ ذلك مع وجود ضريح "سيدي امبارك" القريب من الحي الصفيحي، فاعتقَد صاحبُنا أن طائفة من الجنّ خرجَت من الضريح لتُمطِرَ ظهرَهُ بالخبط.. وهكذا، كانَ كُلّما ضغَط مُسرعاً على الدواسة خبطُه الخرطوم الثقيل على ظهره فيهمس (باسم الله الرحمان الرحيم).. فصارَ الإيقاعُ هكذا (ضَغطة على الدوّاسَة.. صاطْ.. باسم الله الرحمان الرحيم.. ضغطة.. صاط.. باسم الله الرحمان الرحيم..).. إلى أن ترَك الدراجة ثم ركضَ لا يلوي على شيء..

رغم النّيران ومحاولات رجال الوقاية المدنية منعه، فقد هرولَ عمّي إلى الكوخ الذي غطتهُ ألسنة النار، وبعد لحظة خرج حاملاً حُقّاً كان يُخبّئُ فيه أمواله، على عادة السُكان تلك السنوات.. كان منظرُه غريباً وهُو يَضحكُ وقَد تشوَّط وجَهه بالكامل تقريباً..

هكذا احتاجَ الرجل شهوراً من الرعاية حتّى تُشفى حروقُه أولا، ثمّ ليقتنعَ أنّ ما حدثَ له في الطريق تلك الليلة لَم يكن مؤامرة من الجنّ، بل فقط بسبب الخرطوم الذي لَم يَكُن قد أحكَم ربطهُ بالسّلك..

في المساء، كنتُ أجلسُ فارداً رجليّ أمام كوخناالذي أعادَ أبي بناءَهُ بسُرعة، وقد وضَعتُ أمامي كُبة من أسلاك الكهرباء النُحاسيّة، كانت غنيمَتي ذاك المساء.... وفي اللحظة ذاتها خرجَ الجرذُ السمين من فوهة البالوعة، وعندما رآني وقفَ على قائمتيه الخلفيّتين، وخُيّل إليّ أنهُ ضحك أو هكذا كان.. ثمّ سرعان ما عاد إلى البالُوعة..

الكاتب الذي لم يلعن الشيطان

«(...)آنئذ، شعر بدبيب الأسف يزحف على كيانه. لماذا غرز فيها كل سهام الغضب تلك، وأبكاها؟ تطلع إلى قسماتها البريئة في أسى. ما أظلم الرجال! أي غبي هذا الذي يسيء إلى هذا المخلوق اللطيف! كيف نسي أنها رفيقة عمره وأم أبنائه ..كيف؟

تسللت يده إلى أناملها الناعمة، لكنها سحبتها منه، ثم هرعت إلى المطبخ باكية.. إذ ذاك اعتصره الندم، فأطرق هامسا: الله يلعن ... »

ما كاد الكاتب يتم عبارته الأخيرة.. حتى مرق من رأس القلم، وفي لمح البصر دخان أفعواني بلون الحبر. دار الدخان وانفتل أمام ناظريه كعاصفة صغيرة، ثم التأم شيئا فشيئا فوق المائدة، حتى أضحى بهيئة كائن غريب ..وفجأة، قصف أذنيه بصوت كالرعد:

- لن تفعلها بي مرة أخرى!..

رمى الكاتب بالقلم وزحزح الكرسي بجسده إلى الخلف صارخا هو الآخر في ذهول:

- بـ.. بسم الله.. الرحمـ....ـن.. الر..ر..ر..رحيم! مـ..ممن.. ممن أنت؟؟!!

قهقه الكائن الدخاني بصوت مرعب:

-تخاف مني، ولا تتردد في الإساءة إلي؟

ارتجفت شفتا الكاتب وتحشرجت الكلمات في فمه، وهو يتأمل الجسم الكالح الذي ينتصب فوق المائدة، فقال جزعا:

- من.. تكون.. أنا.. لا ..أعرفك!

قال الكائن الغريب مشيرا إلى آخر سطر من القصة:

- أنا الذي كنت ستكتب اسمه هنا ..

فكر الكاتب برهة والاستغراب يقضم روحه، ثم ما لبث أن صاح مرعوبا مرة أخرى:

– ماذا؟ الشيطان؟ أعوذ بالله من...

– وما إن سمع الشيطان كلامه، حتى بادر بمقاطعته محذرا :

– إياك! إياك أن تفعل! إياك أن تتفوه بتلك العبارة!

إثر ذلك كبح الكاتب لسانه، وقد ناء صدره بوجيب قلبه. ولكن، لم كل هذا الذعر؟ فقد يستطيع إجلاءه متى أراد. يكفي أن ينطق بالكلمات السحرية. استجمع أنفاسه بعدما اطمأن إلى سلطته وهو يحدق في غرابة شكل المخلوق. فلأستمتع بهذه اللحظة الثمينة التي لم يظفر بها أحد قبلي. هكذا قال لنفسه، ثم أشعل سيجارة. سره أن يمتلك زمام الأمر، فقال بهدوء:

– جميل.. أنت الشيطان إذن!

حرك الشيطان رأسه الصغير ذا القرنين المستفزين إيجابا، فوضع الكاتب رجله اليمنى على اليسرى..

– الشيطان يقف أمامي! أراه ويراني.. ما أسعدني! والآن، بربك قل لي ماذا تريد مني؟

قال الشيطان بتوسل:

– بربك أنت الذي ماذا تريد مني؟ ماذا فعلت بك يا أخي حتى تقحمني في كل قصصك، ولا تذكرني إلا ملعونا؟!

أفرد الكاتب ذراعيه مبتسما، ثم قالببداهة:

- لأنك الشيطان ببساطة.. ألست موقد الفتنة، ومذكي المصائب جميعها؟!

عقب الشيطان حانقا:

- لا يا صاح! غلط في غلط!

تساءل الكاتب:

- كيف أيها المارد؟

أجاب الشيطان:

- حسنا، فلنأخذ على سبيل المثال ما كتبته قبل برهة؛ بطل القصة خانته زوجته، ولما علم بذلك غضب وحاول معاقبتها، ولكي تجد للنص مخرجا ارتأيت أن تجعله يلعنني لتفض النازلة.. فبالله عليك ما دخلي أنا في كل هذا؟؟؟

خيمت ملامح الجدية على وجه الكاتب، وقال موضحا:

- أولا، أنا لم أذكر ذلك؛ قلت فقط إن البطل من خيل إليه ذلك لأنه شكاك بطبعه، ومثل تلك الوساوس لا تكون سوى من بديع الشياطين ..والكل يوقن بذلك.. فهل جانبت الصواب في قولي؟؟

أجاب الشيطان فيخبث:

- نعم أيها الكاتب الكبير، لقد حدت عن الحق وضللت سواء السبيل.

تفجرت مراجل الحيرة في نفس الكاتب فانتفض قائلا:

- ماذا تقصد ؟؟

- ابتسم الشيطان قائلا:

- ألم تقل في قصتك إن الزوجة سحبت من البطل يدها لما حاول تقبيلها؟؟

– أجل!

– وقلت أيضا أنها هرعت باكية إلى المطبخ..

– بالتأكيد!!

رد الشيطان بحزم:

– أنصت يا عزيزي، أنت لا تدرك أمرا بالغة أهميته؛ تلك الحركات التي ندت عن الزوجة، دليل دامغ أنها فعلا أتت شيئا نكرا، ولذلك لم تستطع أن ترى الزوج المسكين يحاول استرضاءها وهي الآثمة والمجرمة في حقه. هن كذلك! ثق بي!

تساءل الكاتب والحيرة تمتشقه:

– كيف؟ كيف ذلك؟

وفي تلك اللحظة، دلفت زوجة الكاتب إلى الغرفة، ثم وضعت فنجان القهوة أمامه، وهي تقول مداعبة:

– ما بك يا حبيبي تتكلم لوحدك هكذا؟ قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

وما إن نطقت بعبارتها حتى تبخر المخلوق الأسود من فوق المائدة، فاستدار الكاتب نحوها هاويا على خدها بصفعة قوية. اندلقت القهوة على الورقة، وتراجعت المسكينة إلى الوراء في ذعر ويدها على خدها. هزها من تلابيبها وهو يصيح:

– لماذا طردته؟ لماذا؟ ماذا فعللك؟

تسمرت الزوجة في مكانها وجلة. كانت سحابة الصمت التي رانت على الأشياء كافية لينتبه الكاتب إلى ما اقترفت يداه. أسبل جفنيه، وطفق يستعيد شريط ما حدث ..آنئذ، شعر بدبيب الأسف يزحف على كيانه. لماذا غرز فيها كل سهام الغضب تلك، وأبكاها؟

تطلع إلى قسماتها البريئة في أسى. ما أظلم الرجال! أي غبي هذا الذي يسيء إلى هذا المخلوق اللطيف.. كيف نسي أنها رفيقة عمره وأم أبنائه ..كيف؟

تسللت يده إلى أناملها الناعمة، لكنها سحبتها منه، ثم هرعت إلى المطبخ باكية..

رجل يغادر شقته

ما إن لفظني مقر الجريدة إلى قارعة الشارع الهاجع، حتى ألفيتني أحث خطواتي المتلاحقة صوب شقتي. كان الظلام قد هبط بردائه على المدينة. جفت حركات المارة، واختفت الوجوه خلف الأبواب الساجية. في الحقيقة، ليس من دأبي استجلاب القيل والقال، واستنفار ألسن الجيران، إذ علي أن ألج باب الشقة في حذر شديد، وأغلقه من ورائي ببطء أشد. أوقدت النور، ثم خلعت سترتي وعلقتها على المشجب المشرئب من أعلى الجدار. انداح إلى خياشيمي عبق الشقة المهملة. ملابس مكومة تنتظر موعد الغسيل في يأس. كيس قمامة مركون تحت الدرج. فناجين قهوة أضحت ملاذا آمنا للذباب. أوراق متناثرة في كل الأرجاء، بدءا من غرفة النوم إلى المطبخ... كل شيء يسبح في فلك من الفوضى واللا ترتيب. ألقيت بالصحيفة على سطح المائدة الخفيضة، ثم قذفت بالحقيبة الحقيرة داخل الغرفة، لألحق بها متداعيا إلى السرير في تهالك.

وأنا أناجي رطوبة الوسادة، تناهى إلى أذني طرق خفيف على الباب. أرهفت السمع. من يكون الطارق في هذه الساعة المتأخرة؟ فأنا لم أقترف وشائج في العمارة أو الحي حتى! التهبت جذوة فضولي، فقمت نافضا عني تعب اليوم، دفعت بخطواتي المترنحة صوب الباب. وقفت هنيهة لألملم أفكاري. لا تزال النقرات الخفيفة تتوالى. أدرت مقبض الباب، ثم فتحته.

– أستميحك عذرا سيدي، كنا بانتظارك طيلة المساء.

كانت امرأة تتأبط ذراعها فتاة في مقتبل العمر. دعكت محجري مشدوها:

– عفوا!

بادرت المرأة متلعثمة:

– أنا جارتك سيدي، وهذه بنتي نعيمة. تدرس بالصف الثانوي، وتنشد مساعدتك لها في إنجاز تمرين عسير.

تذكرت القذارة التي تربض من خلفي، فقلت مترددا، وأنا ألوح بيدي المرتجفة في فضاء الشقة العابق بالروائح العفنة:

– ط..طبعا.. بإمكانكما أن تتفضلا!

وأنا أمشي خلفها مرتبكا قلت:

– اعتذر على هذه المزبلة، كنت مشغولا خلال الأيام الأخيرة...

قاطعتني الأم مبتسمة، قبل أن تقتعد كرسيا واطئا يتوسط باحة الشقة :

– أعلم يا بني.. الهموم ترهق المرء، والمشاغل تقضم الوقت والراحة..

التفتت نحوي مبتسمة، ثم استطردت في همس:

– خصوصا لمن يعيش وحيدا، أليس كذلك؟

اهتز كياني لهذا التجاسر غير المحسوب، فداريته قائلا:

– بلى سيدتي،.. هيا فلنطلع على التمرين، أليس كذلك؟!

ما إن أشرعت الفتاة الصامتة الدفتر أمامي، حتى صاحت بها الأم محتدة:

– تتفرجين علي يا غبية؟ قومي واكسحي شقة الأستاذ، ثم نظفي تلك الأواني، هيا ماذا تنتظرين؟!

انتفضت مستغربا أمرها، ثم أشرت إليها بالجلوس محرجا:

– لا لا، أرجوكما. شكرا، غدا سأفعل ذلك لوحدي، فلا تشقا على نفسيكما.

وبدا أن كلماتي لم تجد لديها أذنا صاغية، إذ ناولت الفتاة المكنسة، فتلقتها الأخيرة مشمرة عن ساعديها البضين، وراحت تكنس أرضية الشقة، وتمسح الجذران الوسخة، و تزيل بيوت العناكب من زوايا المطبخ بطرف المكنسة... وأنا أتابعها في حيرة من أمري، وقد انحبست الكلمات تحت لساني، بينما التفتت الأم صوبي مبتسمة مرة أخرى:

- مسكينة نعيمة، ليس لها في الدراسة.. تعشق شؤون البيت، ولا أخفيك أنها تتقنها أحسن مني.

لم أجد ما أعقب به، فابتسمت في بلادة. آنئذ، دنت مني الفتاة مطأطئة رأسها، ثم سمعتها تقول في أدب جم:

- أتسمح لي سيدي بتنظيف باحة الشقة؟

وفي غمرة دهشتي، وقفت دون أن أنبس ببنت شفة، ولم أجد من خيار سوى النزول عند رغبتها، وفسح المكان لمكنستها. أمام مدخل الشقة، أشعلت سيجارة ورحت أعب منها وأنا أقلب الأفكار المصطخبة في مخيلتي. ملت نحو الدرابزين، ثم اتكأت عليه بمرفقي وتركتني غارقا في شرودي.

- تفضل سيدي.

دنت الفتاة مني واضعة طرف ثوب مبلل على عتبة الشقة وهي تقول في حزم:

- امسح رجليك قبل أن تدخل!

مرغت نعلي فوق الثوب المبلل في صمت ثم دلفت إلى الشقة.

همست في أذني:

– حذار أن توقظ أمي، لقد نامت.

قلت وقد نفد صبري:

– وأين سأنام أنا؟

أشارت إلى فراش وسط الشقة، ثم قالت باسمة:

– أووه، لقد أعددت لك هذا المكان لتنام فيه، ليس من قبيل الأدب إيقاظ أمي بعدما استسلمت لنومها.

وقبل أن تلتحق لتمدد قرب أمها في شبه ألفة.. قالت:

– هل تحتاج شيئا؟

قلت كاتما دهشتي:

– لا، طبعا.

ابتسمت قائلة:

– إذن تصبح على خير. سأوقظك باكرا لتتوجه إلى عملك.

وما إن أخمدت النور، حتى شرعت أمواج الأفكار تتقاذفني، وكدت أجزم أن ما حدث لا يعدو أن يكون أضغاث أحلام، لولا أن استشعرت برودة بهو الشقة..

وإذ تيقنت من نوم الفتاة وأمها، قمت متدثرا بالعتمة. جمعت حقيبتي في صمت، ثم تسللت عبر باب الشقة. فتحته في حذر، وما إن نزلت درج العمارة حتى أطلقت ساقي للريح...

الفقيه والشياطين

أنظارُنا المشدودة إلى المطرب الشّعبي لا تحتملُ السّهو. والقيطون المدعوّ "حزانة" واسع جدا. يستطيعُ أن يضمّ كلّ هذه الرؤوس المطربشة والمعمّمة والحليقة. حتّى فقيه القرية استطعتُ أن أرصُد قُبّ جلبابه الحادّ قُرب منصّة العُرس مثل جبل صغير. كانت الرؤوس تتمايلُ في تفاعل وتناغُم مع كمنجة المطرب ذي الشّارب الملفوف مثل "بارشوك" صغير. لكنّ قُبّ الفقيه بقي ثابتاً دون أن يتحرّك. وحتّى إذا ما فعل، فلم يكُن إلا لالتقاط حركة هؤلاء الخلائق الّتي جمعها هذا القيطون العظيم. قد يتأسّف إذا ما تذّكر ألا أحد منهم تخطّى يوماً عتبة مسجده. أستغفر الله. إنّهُ بيت الله. يقول في نفسه، ثمّ يستطرد "لكنها الفتنة الّتي أخبر عنها سيد النّبي قبل قرون! وانظر إلى هذا القيطون! أليس أوسع من أي بيت بهذه القرية؟ لكنّه بالتأكيد ليس أوسع من رحمة الله، وأستغفر الله مرّة أخرى!"

ما لي والفقيه أنا الضّيف الغريب عن هذه القرية؟ أجلسُ منزوياً بأحد أركانه وقد ارتعدت فرائصي. عيني على صدور الشيخات النّاهدة ومؤخراتهن الّتي تتحرّك مثل مقوَدِ سيارة تخوض منعرجات متتالية. ويدي على قلبي، الذي نزل بقدرة قادر إلى ساقي، حيث يقبعُ السّبسي الثلاثي. كنتُ أخبئه داخل جوربي في حذر. وقد همس مُرافقي قبل قليل في أذني محذّراً: "الجوندارم!". وأنا أريد أن أدخّن أيها العالم! بي رغبة جامحة إلى سحب تنهيدة من داخل السّبسي، ثمّ أزفر "الشّقف" مودعا مع دخانه هذه الرّغبة التي قدحها تمايُل الشيخات على المنصّة. وكلّما عاودتُ تحسّس جوربي في توجّس، دنا الصّديق من أذني كالرّقيب العتيد هامساً "الدّجيب خلف القيطون!". ورُحماك يا الله!

الليلُ بهيم، والنجوم خابية في السّماء. ولا شيء على هذه الأرض غير الأقدام الّتي تدقّ أنصاف البراميل بكلّ قوة، والمغني الذي يشنق عنق كمنجته مثل دجاجة، متماديا في هجو

الغربة الخائنة الّتي أخذت محبوبته إلى ميلانو، فتهتزّ التعاريجُ على أكتاف أفراد الجوق في حماس أكبر، بينما شيخاته يجسن خلال الصّفوف العطشى. أرقبُ قبّ الفقيه من خلف الرؤوس من جديد، فيتبدّى ساكنا يأبى الحركة. لا بُدّ أنهُ زاهدٌ في كلّ هذا. ولا بُدّ أنهُ يتساءلُ كيف أوصلتهُ الخطوات الطّاهرةُ الّتي لا تعرفُ من سبيل غير المحراب إلى هذا محجّ الشياطين هذا؟ إنهُ فقيه القرية. ومن ذا الّذي يجرؤ على إشعال نار تحت قدور الولائم دون دعوته. وهو يُقسمُ أن حجاج بيت الله الحرام إنما يضيعون أموالهم ويتكبّدون عناء السّفر لرمي الجمرات، وشياطين العالم كلّها مجتمعة داخل هذا القيطون. ماذا لو توكّأ الآن على عُكّازه مخاطباً إياهم بالموعظة الحسنة؟ ماذا لو أنذرهم ليوم عظيم؟ ذلك اليوم الذي يرونهُ بعيداً ويراهُ قريبا. لحظة! لو نطق بهذه العبارة بالتّحديد لتدخّل صاحبُ العُرس ليطلبُ من البعيدين عن المنصّة الاقتراب أكثر. سيعتقدُ أنه يقصدُ صدر الشيخة النّافر الذي يرونه بعيداً فيما يراهُ الفقيه قريبا لدنوّ مكانه من المنصّة. لو حصل ذلك لرفع الجميع عقيرتهم بالصّفير والتّهليل لحكمة الفقيه الطّيب. أما الموعظة فلن يفهم أحد متنها كما لم يتسنّ لهم أن يفقهوا كلمة واحدة من خُطب الجمعة الّتي دأب على تلاوتها على أسماع هؤلاء الأموات. "أستغفرُ الله العظيم" يغمغم الفقيه للمرّة الثالثة، ويتذكّرُ حكمة شعبية قديمة تقول "كم يلزمكُ من استغفار أيها البائت بلا عشاء؟". والفقيه استغفرَ الله ثلاث مرّات هذه الليلة، وصاحبُ العرس لم يأمر بعد بإنزال الموائد. والدّجيب في الخارج تتربّصُ بجنبات القيطون مثل عقرب الصّيف، ويدي على جوربي وفم الصّديق على أذني ورحماك يا الله!

الليلُ تشتدّ حلكتهُ ونجومه توغلُ في خبوها، ولولا مصابيح المنصّة لما عنّت رؤوس نساء القرية خلفَ الجُديَةِ وهنّ يراقبن أزواجهم مترنّحين بين صدور الشيخات. وضربت يامنة على كتف رفيقتها قائلة في خُبث:

- انظري إلى زوجك السي عبد القادر، لا يزالُ فحلاً!

وغطّت يامنةُ نصف وجهها بالملحاف رغم العتمة في زهوٍّ خفيّ ثم وكزت مخاطبتها في شبه استحياء:

- اخرسي، الله يمسخك!

لكنّ الله لم يمسخ أحدا تلك الليلة، وحدهُ العطّارُ شوهدَ محمولاً على الأكتاف. وقالَ أحد المدعويّن وعلى شفتيه سيجارة محترقة:

- انظروا! ألم أقل لكم إن الماحيا غدّارة.. الماحيا يهودية!

الكاتب في سطور

عبد السميع بنصابر:

قاص وروائي من مدينة الداخلة.

الإصدارات:

-مجموعة قصصية "حب وبطاقة تعريف" عن مؤسسة جذور للنشر.2009

-مجموعة قصصية "الرقص مع الأموات" منشورات منارة الوحدة. 2011

-رواية "خلف السور بقليل" منشورات اتحاد كتاب المغرب 2013

الجوائز:

-الجائزة الأولى للقصة القصيرة في مسابقة أحمد بوزفور العربية بمشرع بلقصيري 2010

-الجائزة الأولى للقصة القصيرة بملتقى فاس2010

-جائزة الإبداع عن جوائز ناجي نعمان العالمية بلبنان سنة عن مجموعته القصصية " الرقص مع الأموات" 2011

-جائزة قصص على الهواء عن إذاعة البي بي سي بالاشتراك مع مجلة العربي الكويتية 2011.

-جائزة قصص على الهواء عن إذاعة البي بي سي بالاشتراك مع مجلة العربي الكويتية 2012.

-جائزة أحسن نص مسرحي بالمهرجان الجهوي للمسرح المدرسي بالداخلة سنة 2008.

-جائزة أحسن كلمات نشيد بالمهرجان الجهوي " أصوات" بالداخلة سنة 2010.

-جائزة السيناريو بالمهرجان الدولي للسينما بالداخلة سنة 2013، عن سيناريو "يوم خارج الجسد"

-جائزة حوار الثقافات للقصة القصيرة بالرباط سنة 2013

-تنويه جائزة اتحاد كُتاب المغرب عن رواية "خلف السور بقليل" سنة 2013

- القائمة الطويلة لجائزة الملتقى بالاشتراك مع الجامعة الأمريكية بالكويت عن مجموعة "السكابندو 2016.